

الإهـــــــــــــــداء

إلى من يقفون في حر الفجيعة، مُتَحدين صمت الخنوع... إلى كل من لم يسكتوا حيثُ وجُب الكلام..إلى التي لا يمكنكم أن تتصوروا .. كم هي تقاسي لأجل أن أستمر.. وأصحو باكرا.. إلى كل الأصدقاء.. إلى أولئك الأوفياء.. شهداء هذا الوطن الجميل.. إلى الذين لم يبدلوا وظلوا كما الأمس أوفياء ..وأسودا .. إلى أبي الودود ،المتوفر بكثرة ، عبر كل الذات..؟ .. إلى كل أطفال العالم.. إلى أيمن .. وشيماء.. كل الحب .. كل الوفاء.. محمود عيشونة

جيجل/ الجزائر.. في: ٠٨ مايو/٢٠٠٦

قصص..

نصها والمكان..

التقينا.. سألتني عن صحتي،عن أحوال الأصدقاء.. خفق القلب طربا للسؤال. تنهَدت عيناها، من فرط الزفرة الخارجة توًا، من أعماق شوقها..قرأتُ ما تيسر من احرج.. بـدا قابعـا علـى تفاصيل وجهها.. ولكنها أرْدفتْ بنظْرة حزينة.. أرَاكَ لمْ تتَغير، نفسُ الحُزن فـي عينيـك، نفـس التحـسُر والتـصحُر فـي شفتيك..أنت أنت .. لم تغنى ولا تبدو متأنقا.. كمن هـم فـي مركزك..دون أن أتركها تكمل ، قطعت عليها كل شكوكها بمـا أوحاه لها مظهري.. فقلت.. اشتقت إليك .. عفواً إلى كتاباتك.. لم نعد نرى رسم حروفك الشائقة.. تركض في تأنق لذيذ فوق صفحات جرائدنا.. وأنت أكثر من غيرك تعلمين كم أنا .. عفواً نحن ، نقدر خفة الروح لدى أبطال قصـصك.. أنـت مبدعـة ناجحة.. عليك بالمثابرة.. لابد أن تستمري..؟
وغزتنا لحظات صمت ورهبـة وخـوف أبجـدي.. وتـسمرنا كمجسمين لشخصيات كرتونية، متحاشيا كلٌ منـا النظـر فـي عيني الآخر.. رغم ما يحمله من عاطفة.. كل منا للآخر وقـد فاقت حاجة القلب..إلى أن كلينا كان يخشى الإفـصاح للآخـر أولا.. رغم كل شيء مرت اللحظات صامتة ومؤلمة.. مكنت كل منا من امتصاص صدمة المفاجئة على طريقته الخاصـة..ولأن المرء ملزم بأن لا يقول شيئا عندما يقول الـصمت أشـيائه،

ودون إرادة مني صدرت عن يدي حركة حَدقة.. فلم أنتبـــه إلا وأنا أنفثُ دخان سيجارتي في وجه صمت المكـــان.. ولا أدري حتى كيف أشعلتها.. حمدت الله أخيراً وبدءً لأن هـــذه الحركـــة الصغيرة جعلتني أنفلت من أحلى صمت إلى ألذ انتشاء.. فقلتُ مخاطباً {سجاح}.. هـــي اســـمها هكـــذا ولـــست أدري لمـــاذا ..سجاح..؟
تذكرت الاسم الأول ..قلتُ في نفسي ، لم يعد له معنى.. وقـــد ركع الذين حكموا رقابنا وحجوا فرادى وجماعات، إلـــى قِبلـــة أخرى.. وقبلوا كل من في البيت.. وحـــامي البيـــت .. وحتـــى سياج البيت.. ثم خرجوا وكل في شأن، فمنهم من مات جوعـــا ومنهم من أهلك شعبه .. ومنهم من رضـــي بـــالقعود تحتـــا.. طاعةً وسمعاً لإرادة الراعي الأكبر.. صاحب الجنون ولإرهـــاب كله.. السيد راعي البقر الحلوب..؟؟ ولكنني بعد برهة ســـألتها وقد تأجج قلبي بالرعب.. لماذا أنت ســـجاح.. ولـــستِ ســـارة مثلا.. لماذا أبوك هذا.. ورغم كل اللآمعنى، تشبث وظل يُصر حتى سماكِ.. هكذا بكل الصدق..سجاح.. تبسمت ضاحكة مـــن قولي.. وقالت ادخل أيها العبثُ صميم القلـــب .. وقُـــل قولْـــك السجين.. فأنت المنقب والمستكشف الأول، لهـــذا الإرث مـــن حضارة الأنثى الضائعة.. تستفزني بقولك ولم تقل، أنك بحديثك ، إنما تُطفئ لهباً في قلبٍ يصلى.. أيها العبـــثُ.. كـــم حياتـــك شقاء..ولم أشأ مقاطعتُها مُكتفياً بالارتواء من عـــذب عروبـــة ضائعة.. أنا الهائم سرمداً عبر صحاري الحياة وقيعان المدن.. حيثُ يسكن العالمُ الحقيقي والناس الحقيقيون.. أبدا لم أجد ألذ من عذوبة صوتها.. ولا أروع من شاعرية نظرتها بكل ذلـــك الحور يغازل حواسي في استحياء.. ولا أنقـــى مـــن صـــفائها

المشتغل في زرعي برغبة امتلاكها، كدنيا أسيح فيها أعيش..
وأعبد الله.. إلى أن أُتْعِب الموت.. فيأخذني راضيا مرضيا..؟؟
وبعد.. سألتني متهالكة.. أتعبني صفاؤك.. عفواً.. رغبتك
ودعوتُكَ الطارئة للقاء..؟ ودون سابق تخمين.. وجدتني أسألها
بدوري.. بل لم التقينا..؟ فتناثرت حمرة بلون الورد فوق خدين
جميلين.. وقالت بعفوية من يقوده قلبه.. لا أدري..؟
وتدفق غيم الشوق وتلهف التحنان داخلي .. فقُلتُ لأسألها
المزيد.. وقد جمعتنا الصدفة والمكان.. ولرغبةٍ ما في عينيها
الرؤوفتين.. تستفسِر عن لحظات بعادنا.. وعن وقتي كيف
انقضى.. وهل من ساكنة غيرها، بثور قلبي الدامية..قلتُ..
لاشيء مما يضايق ملامح الاعتذار على وجهك الجميل...لم
أتقدم في شيء.. وقد أخرتني المأساة.. مثلما أخَرتْ إعلان
تلهُفنا المشترك.. لم أفهم قالت ممازحة..؟ وهل تحتاج المفاجأة
إلى فهمٍ.. عقبتُ عليها بمزحة أدق.. وتفادياً لإشعال الشفاه..
أحرقتُ حرجي بإشعالي لسيجارة، كانت ضحيتي ومنفى المحرم
من الأوجاع..؟ وتناثرنا في الصمت .. وجمع كل منا ذراتهُ في
لحظات قلقٍ وانتظار.. ورغما عن إرادتي استعمرتني قوة
هائلة،برغبة مميتة دفعتني ، إلى ضمها والهمس في أذنها..{{
انه لمن المرارة والظلم، أن ينتظر المرء اعترافاً ، ضمن
مساحة ودٍ لا تتعدى حروفاً أربعة..؟}}
{{ أيها الفلك السابح في الحنايا والرجافات.. الموعود بهذا
الأسيل السلسبيل، قل أنكَ تتِمَة الأنفاس المفعمة ، تَخْرُجُ شِفاءً
لصدْركَ العليل.. قلْهاَ أيها المنقبْ في كمياء الحياة عن فزياء
توصلك ببلور الجسد المتلهف .. تحضُنُه ويَسْكُنك سرمداً.. قل
ولا تخف تمنحكَ روعة الأبجدية.. وتُعيدكَ طفلُكَ الأول، يجلس

مُشْرِع المسام لولوجِهاَ بؤبؤ الروح..في يومٍ كان عاصفا .. في مساءٍ كان دفئاً رغم قسوة البرد.. قل ولا تخف إنك إنسان..؟}}هذا الهتاف ظل بداخلي طيلة احتضاني لها .. ولكنني لم أقدر على القول ، كذلك لم تفْعلْ غير أنها ظلت تتنفس .. ولا شيء عدا التنفس الودود..؟
وهكذا دواليكَ وَلِجَتْ نص المكان.. وقرأتْ بلغة غريبة ، ما كانت تهمسُ به ملامحي .. وتهفو روحُها في تجسيده نصا يخلد لذاكرة المكان..؟ قالت سأريكَ آخر نصٍ كتبتُه.. ولم تقتُل المفاجأة.. متعمدةً تركي في خلاء الليل وحيداً ، مع نصها أقرأه.. وأسْهِب في فهم آلاف الصرخات، تنبعثُ متوجعةً ، في تأوه طفولي ، من جسدٍ بدا أنه ينضحُ بالنضج والامتلاء الكامل..؟ سلمتني نصُها وأردفتْ.. صرتُ امرأة كاملة.. وأرجو أن يُكتبِ لنصي، ذلك الثراء الذي يميزك.. وأنت تتناول كبرياء هذا القوام.. بكل الامتلاك والقدرة على التشكيل..؟ ولم تقُلْ أحبك ، مثلما لم أقُلهاَ.. وافترقنا.. مُختَليةً بصورة عن شخصي.. وهائماً بنصِهاَ في خلاء ليل.. لافجرَ لهُ أبداً..؟!

تمت..جيجل : أبريل/٢٠٠٥

قصص..

الوهم..

والآن يمر هذا الموعد عمرا..بسمة ربما.. ربما سهوا..وماذا للقلب غير صفائه..غير زخم الأفراح وأسراب الأماني وهدي المساحات لا حدود لها..وكل ما في الأفق لدفئ الكلام..لصيرورة الانتهاء..ويمضي رتيبا وقتنا..ثكالى ربما.. ربما يخبؤنا الاحتمال.. وغدا قد يجيء ملؤه ما تشتهيه الشغاف..رحل العام وهكذا دواليك يقربنا الآتي.. ونمضي كأنما بعثنا لأفق نعشش فيه..ربما نعبره بأجنحة من ريح..نحاكي النوارس تارة..وأخرى نغرف من زرقة ونسكن البحر..نمتطيه.. وتارة للأصداف نقول.. أننا والسر.. وهنيهة اللحظة.. شيء من رياحين الشدا العابر..شيء هكذا منحناه مند البدء ، لعشا يا ستجيء ..و ملؤنا سنقول إننا والأشياء واحد..!؟.

وأخيرا يتنازل الرصيف عن رواده القدامى والجدد..وتجلس وحيدة على حافة إحدى متاهاته، تراقب حركة الصمت في قلق واضح..ينبسط الهدوء ويتمطط ، حتى مخرج المدينة

الغربي.. على امتداد الشارع هناك فقط نوافذ موصدة.. وفــي السماء تتداول قطع من الغيم ، على رقعة زرقاء منذ الصباح الذي جلست فيه وحيدة ومتعبة..منذ الصباح وهي تنتظر زائر ما.. سيارة ما .. أحــد عــابري الــسبيل.. تــسأله إن كــان بالإمكان.. أبدا لاشيء عــدا مــا هــي عليــه، مــن هــوس وتشتت..كَسرت خمولها في خرقٍ واضح لحالــة الــصمت .. وانتقلت إلى الشارع الخلفي، ربما تلقى رصــيفا آخــر أكثــر أنسا..ربما بابا يُفضي إلى الحياة..مشت والرنة نفــسها فــي أذنيها، الصمت نفسه .. والخواء نفسه.. شارع طويل برتــلٍ من البنايات، دقيقة التصميم..نوافذ مغلقة وسياج مــن الــرتْم نفسه يحيط بكل المساحة..الغيمُ نفسه في صراع من أجل رقعة زرقاء ، في سماء هي نفسها سماء الشارع الآخر..؟

إن الانتظار حالتها.. تلبسها حُلْيةً.. وتستخرجُ مــن صــمتها.. ملامح لحظتها وانسيابها معــه، كأنــه فجــر الأزل الــذي لا يجيء..! وهو المــادة التــي تــستحيل إلــى كــل الأشــياء الممكنة..ولا يستوي جالسا يــرمم بناءاتهــا المتــصدعة..أو

منهمكا يضمد آخر جراحاتها التي أحــدثها الغيــاب الرهيــب، لعينيه الرؤوفتين.. تحضن جسدها الخائف البليل..!؟.

{هل يكفي أن نحب، حتى ينفتح المدى ربيعــا. إلــى الآفــاق البعيدة..؟} سألها وألقى بعقب ســيجارته فــي البحــر..لــم تستوعب سؤاله جيدا فانكمشت على نفسها خوفا من فــضيحة الرسوب.. وهي التي ظنت نفسها العالمــة بخبايــاه..غيــرت مجرى الحديث.. وأوهمته أنها لا تستطيع حضور حصة الغد.. فزادت من ثورته التي سرعان ما كتمها في داخله. وقال..أنــا هنا لست أستاذك..لم نكلف أنفسنا عناء هذه الرحلة من أجل ألا نقول شيئا..أو نخوض في أحاديث الدراسة..أنا هنا..حبيــــــــ.. ويبــست بــاقي حــروف العبــارة فــوق شــفتيه..فــتح الجريدة..تصفح تفاهتها في قلق واضح ثم و ضــعها جانبــا.. وقال ..لا عليك.. لنترك الغد إلى حينه.. ما يهمنا الآن هو شد هذا الاختلاف.. وقد حلمنا كثيرا بهذه الخلــوة ، مــع البحــر والذات..؟؟ سُمية... أنت لا يرضيك ، أن أتشرد من جديد عبر قفار هذه الدنيا، بحثا عن وردة غيــرك..أنــا الابــن الوســط للأربعين .. وهذا الشيب ترينَه غزى الوجه والرأس..هل أقتنع

وأعود إلى كهفي في العزلة، خـــالي الوفـــاض..أبـــدا..لـــيس قصدي.. وأمسكت بيده في حين كانت دنيا جسده تنفتح لهـــا.. فأحستْ بالأمان داخل حضنه.. و شفتاه تزرع عربون الوفـــاء زغبا لا يحصى، فوق خصب جسدها الناعم المنصهر..!؟.

مهلا .. في وحدتها الصامتة الآن ، تتذكره واقعـــا.. وتقـــول للفراغ حديث المكان.. وسياحتها معه في دنيا النبل.. وحكياهما عن عشايا راعشات.. وكان يكبرها شيبا وقلبا وحيـــاة..هـــي التلميذة التي تحدت في إصرار زميلاتها.. واجتهدت في جلبـــه من دنيا اليأس.. وعمر الفجيعة..كي تخرجه من قوقعة "الفوق" إلى أجواء الخصب وعلن اللحظة.. كانت التلميـــذة المجتهـــدة والمولعة بالمشاكسات..أرادت فقط أن تبرهن أنها الرقم واحد.. وكان الأستاذ المتوج بعرش الفوق ومماليك الرهبة..أرادت أن تشاكسه فقربها وأسكنها فسيح إنسانه.. أرادت أن تخرجه من سر.. إلى علنية.. كي يجعلها ميزته الوحيدة.. فكان الحاصـــل أن اعترفت له.. وأقرت أن لا شريك سواه في عمرها و طريق الورد..!؟.

على الكورنيش جلسا جنبا إلى جنب.. كان آخــر اللقــاءات.. حدثته عن آمال طفلة تكبر بــبطء.. وخــوف.. نحــو آفــاق المجهول.. وحدثها عن شيب غزاه.. وبدأ يربكه كلما تحاشــت النظر إلى وجهه الوقور.. كان ما بداخلها مــن فــيض حبــه وحنوه.. سببا لتحاشي الخجل.. وليس العكس أبدا.. صــمتا .. حين لا أروع من الصمت.. وظلت " الرابطة "[1] بقمتها باســطة لكل الروعة.. وهي في ذروة شرودها البحري..!.

حيث وأنت.. تتأمل نتوءات بحرها، لا يسعك دوما إلا أن تتــوه أكثر ، مأخوذا بحكايا الذاكرة الشعبية، عن بلوطِها العتيق وقــد تحلق حول مزارة الحمام..فوق جبل" مزغيطان"[2].

تُفْتَنُ أكثر.. وبصرك يحلق فوق صخورها البيضاء.. والبنية.. تنغرز بكل ذلك الإنفاق، على امتداد الجبل المستند إلى البحر.. وهو يرمي بوهج أزهار القندول عيونــك بالاشــتهاء.. تمــر الحياة وئيدة .. وببطء أشد ينسحب النهار، تاركا إياهما لحديث المكان.. لتمضي إلى ليلها متوسدة قلبــه الــوارف.. مــسندة رأسها بحكاياه وهو يلهبها.. وقلبها الصغير الذي أحبه، ولــم يُفْرِغْ عليه "عمار" قطر الرجال.. الذين يبيعون للمتعة إخــلاص

من يملكون.. لم يسئ أبدا فهم أنوثتها.. فهي الآن من جـوف عالمها الخاص، تعترف علناً.. ولكل البـشر.. أنهـا إحـدى ممتلكاته..وأنه.. من نفس الأكسجين الذي تتنفسُه.. ولكـن.. إرادة الله.. وفي الأرض رغبة والد .. أنهكته عادات العشيرة.. كانا قرارها الغريب..!؟

قالت سمية.. لأبي كل المدى شرنقة، يحبس فيها جسدي كيفما شاء.. و أرادت عشيرة الهوان.. وهو بكل قامته قهرتـه أهواء القبيلة... حين يتمنطق العرف جبروت جهله.. ينحـسر البحر.. وتذوب تلك الندوب ، التي في روح الذات الهائمـة.. يُطرحُ السؤال.. ويستحيل الكلام الجميل عن الحب ، إلى عـالم ضاج.. مخيف وغارق في الدماء.. عنيف ومتأبط لكل الشرور الممكنة.. كأن يأتي من حيث لا ندري.. ويستل من قبح جهلـه سببا.. ويقطع حبل تواصلنا.. فنقر على مضض أنـه منطـق العرف.. وأن زواج ليلة تفكير عام.. أليس هذا ما صارحتك به ونحن نتوادع لآخر مرة..؟ لم يكد يجن أبي وفقط.. وأنا أكلمه عنك.. بل انتحر غيظا.. وأنا أبسِط له عملية شرح وتـشريح لحبنا الذي سيتوجُ بزواج سوي.. تشتت أفكار عائلتنا كلهـا..

وماتت أمي كمدا على وحيدتها.. التي أحبت رجلا يكبرها سنا وقلبا وفقرا.. ودائما و وفاءا لدستور العشيرة.. قرر اخـــوتي تجريدي من غطاء الأسرة.. و"حرقي" تكفيرا عــن تــشويهي لماضي الأسرة ، الحافل بالأمجاد.. وشــنقي علــى مــلأ مــن الأشهاد.. والاقتصاص منك جراء عار، لا يوجد سوى في وهم العشيرة..إن كابرتَ وتزوجتنِي..!.

تفارقنا إذن بعد وداع.. أدرك هذا وأعرف أنني وأنت.. يمكننا أن نضحي بالمزيد، فنتزوج.. وينتصر حبنا.. ولكن في أي مجتمع نحن..؟ وكم غيرنا دفعوا حياتهم وفــاءا، لمبــدأ اتخذوه.. ولا حاصل عدا المزيد من التضحيات..لا فــرق أبــدا بأن نغتال عمرا.. أو حبا.. فكلاهما امتداد لحياة واحــدة..؟!

جيجل : ١٧-٠١- ٢٠٠٤

قصص..

شفاه.. كسيوف..

ما سوف احكيه لكم.. هو شيء من وجع الإنسان.. شيء كالحقيقة.. مر من هنا، حاملاً كل الفصول.. مر الزحف.. والنتوء علقت بالقب.. لتُعلِق العشرُ العجاف مرارته قلادة ، على وشم الشواهد.. وقد غارت في نداوة التربة..ا

معيشتي الآن شيء من علقم المر.. ماضي جرحي .. وأثلامي ذاكرتي.. وها أفتح لكم باباً، كي تلجون الوجع.. ! ؟ فلا أحد بمقدوره ، رصد ما يمكن، أو صد هذا البوح وقد جرفني عارية إليكم، بعدما ركنت لسلطان القبيلة طويلاً..؟ رازحة تحت وطأة الصبر.. الآن.. سأقول هواجسي .. أن لاخوف علي منها، بعد كل ما عنيت.. سترون كيف أنزع أقنعتكم قطعة .. قطعة.. لتطلعوا مطلق التأمل.. قبل أن أبوح .. كنت مثلكم بخوف شره.. بعقدة عصية وصفاء مقهور.. كنت مجسماً لفراغات اللحظة. منتهى الإرباك..؟ !

بنبرات هامسة ورهافة متحدية.. كنت أقرأ في أذن سذاجتي أنني .. ومهما جلدني الصقيع تحت عراء المعيش، سأبقى الأنثى الوحيدة ، في عالم المرأة الخرب.. لأنتبه فجأة.. أنني فقط .. خلاصة الحمق..؟ مجرد صدفة عابرة .. تأبطتها الحياة ، شهوة لعبورها المحتمل..؟

فلم أعد قادرة عن ممارسة الحيلة، على عمق صحا.. وتحرر بوعي .. من كذب العلن وزيفه ..أنا نفاية المرأة.. وغباؤهـا الأزلي، لم أعد أحتمل وقاحة انتمائي لأنوثة شبقه..؟ !
فهل أقـول وتـصدقونني .. إذن لأمـضي خلفكـم حتـى لا أغتصب،{ فالآلام أحيانا تستصغرنا، فنصير أكثر سادية، أثقل قولاً وأقل قيمة.. في عالم ..هو مجرد إبرة في صحراء غربتنا الناهشة..؟ ! }
إن أمي البائسة .. تريدني الآن ، أن أضمنها العقـد .. وأنـا ضيعت الخيط الناظم منذ أن صحوت.. وخرجت إلـى الـضياء، مستلذة بكل هذا الموج مـن الوجـع، بكـل هـذا الاحتقـار.. وبإمكانكم أن تنظروا الآن إلى حيث تجلسُ.. فلا خوف علـيكم ولا ارتباك.. فهي وحيدة على رعب الليل تقعي.. ناثرة دمعها ، مؤجلة حياتها إلى حين طفولتها.. لا تحزنوا..؟ هي فقط تسقط عمرها متعمدة.. تماماً مثلما تفعلون.. !
فقط تنهي أمي عمرها بوعي ورغبة في الخلود..؟

أمي يوم عرفت أبي ، لم تكن قد سمعت عنه قط.. رغم ذلـك تزوجته بفرح مكتوم.. ورغبة سجينة ..؟ لم تحلم أبداً.. ولم تكن لها الفسحة الكافية، كي تتورط في البوح.. ولأن للبـوح أقداره وخصائصه.. ومثل كل الأشياء.. له لغته الخاصة.. فإن أمي ظلت تخونها تلك اللغة.. فهـي في بحث دائم ، عن فسحة ذات .. خارج أنفاس أبي..؟ كانت مثله، تكره أن تظل وفقـط .. مرتعـاً لاهتـزازات الـنفس.. وغايـة تنتهـي عـندهـا إنسانية الإنسان..؟! كانـت تبحـث بجهد وأبدية ، عن فيزياء توصـل ما بالقلـب.. لـذلك

تراها صامتة باستمرار.. منهكة بفشل ذريع، اعتاد أن يطال كل المجتمع ويسكن خبزه ويومه..؟
فهي دائما مرتعها أذني .. تعود إليها كلما أنهكها تكالب الضيق والغبن العضال؟؟
كانت دائما تحضنني وتقول في أذني همساً.. {مشكلتنا يابنتي ً.. لغة تألفنا ونفقهها، توصل ما نحسه.. وما نحمله من عاطفة للآخر..؟!} أتدري عليك أن تفخري بانتمائك لأب أجلهُ.. ويدري أني أحبه دون أن يقدر، على الاعتراف لي بهذا .. لأننا إلى الآن.. كلنا لا يدري كيف يصل قلب الآخر.. إنها مأساتنا مع اللغة .. وسر الحوار المعدوم، بسيف القبيلة وعرفها البالي..؟

تمر على الإنسان لحظات كثيرة .. يحتاج فيها إلى أنس.. إلى كلمات .. إلى من يبادله شعور مشترك..إلى حنين لشيء ما.. المهم هكذا أمور يحتاجها المرء.. أمور تحسسه بالانتماء إلى الحياة..ووالدك كان قادرا على خلق هذه الأشياء .. أنا أعرف هذا.. ولكن ثمة شيء مفقود في علاقتنا، ضل يكبت كل هذه المشاعر .. ربما العادات.. ربما تقاليد العشيرة البالية.. ربما الخوف من ألسنة السوء.. كان حريا بنا أن لا نكتفي بتبادل الرعشة وفقط.. ثمة كوامن في الإنسان.. لاتحركها اللذة الجنسية وحدها.. أبدا ... أبدا..؟!

مسكينة أمي .. هكذا كانت تهمس لي دائما كلما ضايقتها المحن.. ولا تفتأ أن تنام.. فهي اعتادت على النوم في هدوء

وبساطة.. مندهشة مشدوهة.. لتلك الفجائية {الصدمة..} التي أزهقت روح رجل ..
فهم العالم كما يجب.. لأنه حين أبصر الخوف منتصبا في عيون الناس.. راح هو يقترب منه أكثر..هذا الرجل اللذيذ.. كان أبي .. وكان لأمي كل الممكن.. كان يُدخن بشراهة.. ويصوم بتفان.. يتأمل بعمق وَيُجِلُ بإدراك، فنوبات التأمل لدينا الآن .. نحن أسرته.. إنما انتقلت منه إلينا..لأستحوذ أنا على الجزء الأكبر.. وأمي تتخذ مني ، رفيقة غربة واكتئاب..؟؟
أنا.. ريم .. طفلتها الصغيرة البريئة.. والخائفة جدا من ضخامة العالم.. افتح عيني على غربة بحجم المجهول ، لتكبر كلانا غريبة عن الأخرى، رغم جلوسنا المستمر، جنبا إلى جنب.. في رحبة الليالي البائسة تلك.. كانتِ تكبرُ وحيدة ، نحو وجع شيخوخة متألمة.. وظللتُ أنا.. وببطء.. أزحفُ نحو وخز الأنثى.. منتهى الآخر.. ولطالما تعجبتُ من قلبي.. كلما نهشتني الأسئلة.. وأنا أعيش استحالتي، في عالم خرب..؟
لماذا أخطأ أبي حين قرر أن يتزوج أمي.. فالقلوب البيضاء ليست ملكا لأحد.. وكلاهما كان بقلب أبيض . الآن أعترف .. أنها وهي تحضنني ، لم أكن أحس سوى بالدموع، تنحدر مريرة متعبة.. على وجنتي..
دموعا لست أدري إلى الآن، سببا معينا لانحدارها بكل تلك الآلام.. وبذلك الحجم من المعاناة .. في صمتها المتأمل، كان الضياع يبتلعها.. وكنتُ عديمة الوسيلة كي أوقفه .. أو انتشلها من متاهة التعاسة وقد سرقت لحظات عمرها الجميلة.. كنتُ أصغر من أن أوقف ضجرها.. من أسئلة أبي واجتهاده الصابر.. في البحث لهما عن منفذ أكثر أنساً.. لقد كان همه

الوحيد.. نقطة اللارجوع.. والرسو بأنسهما بعيدا عــن عقــدة القبيلة.. وكنت أنا تلك الشاهدة الخرساء على مأساتهما، وهي تشرط لحم قلبيهما..؟
أوف.. كم كنت مسكينة مضطربة وباكية. وكم جرحــتُ قلبــي لعبث الحياة.. فلم أيأس أبداً من لعنة العبث.. كلما نما البــؤس بعيني.. وكلما اجتازت قدمي عتبة يوم جديد.. !!
هكذا أيها الأخيار.. تذبحني المأساة.. وتوجع لحمي الجــراح.. وأنا أمضي جوف دهاليز البؤس.. وأسوار النسيان السميكة.. خلف الأبواب المفتوحة على المر.. وألم اللحظة.. أبدد العمر.. وأهيئه لعالم الرحيل.. لكن قبل أن أترك لكم دنيــاكم وأديــانكم الجديدة.. علينا أن نقف جميعا كي نتأمل .. وننعي قتلانــا.. ! أجل.. سنفعل ذلك .. من أجل أن تــستمر الحيــاة.. ويتوقــف مشهد الخزي هذا ..؟ ! فمهما يكن فجميعنا ضــحية لمأســاة واحدة..؟ !

عفواً أماه.. توالت علي النوائب.. وهذا* سليم *يقــف فــي مداي بكل الذهول، يريدني أن أضمنه العقد.. وأنا ماذا قلــت..؟ لقد ضيعت الخيط الناظم، فماذا عساي أفعل.. وهو بيننا.. لــم يكن بهذا الشحوب الذي يعلو مساحة وجهه..(خـــويـــــا) كنت يافعاً حالماً فلماذا ضيعوك..؟ ! لماذا أنت مغلفاً بكل هــذا الحزن..؟ !
لماذا حاولت أن تؤثث لأحلامنا الصغيرة.. فــي أرض لاتــشبع الدم.. ولا يمكنها أن تمنحك المبتغى إلا بمزيد الدماء.. وأنــت كنت تكره الدم.. فلماذا هم سفحوه..؟ !

أوه خـــويـــــا .. إن الحلم الذي نما بعمر حنينــك.. أخطــأ طريقه مرة أخرى، نحو قلبك الشجي.. أخذوك على حين غرة.. وأنت لا تذري أن الأزاهير باحت.. فعرتك العتمة.. لست وحدك من أحب رائحتها وخانه ربيعها.. أبداً لست وحدك مــن كـــان ضحية نزواتها.. إنها المساءات الراكدة .. الفوهات.. والألسنة المتورطة .. إنها كمائن الأمكنة.. من أوحى إلــى الحقــد.. أن أسري في قلوب ضعاف النفوس. وكن وبالاً على هدأة الناس.. ومن في الأرض جميعا.. وهكذا أثلجت آلة ما.. حادة.. وربما صدئة.. برعم العمر.. وبدورك أشعلت حرائق أحزاننــا نـــاراً تستعر.. وهم قادمون إليــك.. أرادوك مــثلهم قناعــاً لحجــب العلن.. ولــكــنك مــــن أبيـــك، من مبتدأ دمه.. اخترت أن تظل عاري الصدر.. أبيُ النفس.. مفرد الوجه.. حتى ولو مت جوعاً وهماً.. فأنت كل الحقيقة.. كل الجلاء..؟ !

أتدري.. تذبحني صورتك الضحية، كلما فتحت ذاكرتـــي علـــى قُبلتكَ المطبوعة فوق جبين أمي.. مشاهدكما السريالية.. وأنتما ترفعان أيدكما صوب الله.. أنزلك في الــروح.. وأطلــع إلـــى قلبك.. مغسولة بكل مطر النقــاء.. مطهــرة.. أحــج إليــك.. وأدعوك أن تستريح من غلالة الحيرة الآسرة لعينيك.. أتوســد موضع الطعنة التي في القلب، أمسح على مــشاعرك برفــق.. وأدعـــوك إلى محراب وحدتي.. في وداعة تلبــي النـــداء.. وفي صمـــت نصـــلي.. وهناك في العمق ثمة إحـساس بشعور حي.. أن الله سيـــجيــب دعواتنـــا ..إن الله يجيــب دعوة الداعي إذا دعاه..؟

سليم.. هل تذكر حكاية جدتي عن سر الأقفال.. أكيد أنت تذكر.. ولكن قبل أن تجيب سأتركك ترتاح قليلاً ريثما، أمسح عن إطار صورتك بعض الغبار.. وأفرش لك روضة في القلب.. كي أحبك كثيرا.. وأأتنس بك سرمداً.. فياءيها الذين ضيعتهم ورطة.. هذه أمكنتي.. وهذا عمري الضجر.. تكتلوا.. وأطلوا فجأة من رحم مأساة البسطاء.. ليتحالفوا وقوى الفجائع ضدي.. وأوراقي البيضاء.. وأنا على المنحدر.. بلا كابح ولا أمل .. فقدت الحلم.. بعد أن أفلتته الأقدار غصبا.. من حرائق الصدر..و ضجر الحقيقة .. وقرُ المعيش.. ضيعته بدءً.. وخذلني انتهاءً.. فهو الضياع والهروب.. لم يعد ملكي.. ولا شساعة الآتي المبهم.. لم تعد لعذريته، رائحة أعرفه بها .. المأساة التي سادت ، أزاحتني من ذكراه.. جرفتنا فصرنا ضحية الزمن العقيم..؟.. زمن الغدر..؟ زمن العار..؟ !

من أمام تلك النافذة التي.. لم أكن أرى من خلالها، سوى حقول الضباب.. ومزارع الجثث.. أجلس الآن عاجزة.. رغم وعيي بمخاطر العجز.. فلو واجهت نفسي الآن.. من أنا.. لأجبت على الفور.. أنني المرأة التي فقدت حيلة الدفء.. فكل شيء أراه الآن.. إلا واحتقرته.. ربما نتيجة افتقادي لأقنعة الزيف التي تتطلبها المرحلة.. أو ربما مأساة (فان كوخ) وحدها جعلتني أعي معنى أن يحتقر المرء سادية العالم..؟ !

{لتحل عليكم لعنة الله ..أو فليخلصكم من سطوة تعاستي.. بإمكاني أيها الحمقى أن أعيش.. عيشة أوفر.. وألذ.. لي

مواهبي.. لي إنسانيتي .. أنتم فقط سبب نكستي.. آ ه.. لـــولا هذه التي ..هي أمكم..؟}

هذا أبي.. يتلفظ كلاما جارحاً..ولكنه صادق..و لم نكن نتصور أبداً.. أنها آخر احتجاجاته، على واقع ترهل كثيراً.. لقد ظــل طوال حياته عاثر الحظ.. عليل الصحة وقلبه لبن.. كما يصنفه الأعداء قبل الأصدقاء.. لم يسرق.. ولم يفــسق تقــول أمـــي دائما.. وهي التي خبرته أكثر من غيرها.. أبي لم يكن، ليترك فرصة للمحن.. حتى تتحايل عليه.. بل كان يواجههــا وجهــا لوجه.. كان دائما يقول {{خير الحديث كف اللــسان.. وخيــر الناس.. من بحث في داخله ، عن سره الدفين..؟}}

كان صباحا ممطرا.. وخلف تواضع بيتنا الريفي.. كانت الغابة تحجب نفسها، برداء من ضباب شتاءاتنا البــاردة، فلــم يكــن بالإمكان رؤيتها إلا عتيمة صــامتة .. لم تكن هي مقصد أبــي بالطبع، فهو ظل ولسنين يعبر طريقها المسن.. صباح مساء ، دون أن يزل به قدره نحو وآدها المروع .. كان فقــط.. يعبــر الطريق ليتعب وكنا ننتظره فقط.. لنأكل.. أبــي رغــم عنــف ألفاظه إلى أنه.. كان أطيب أب.. بألطف قلب..أدركت هذا مــن خلال تلصصي على بعض لحظاته الأكثر تعاسة ، حيــث كــان يعاتب نفسه فيها، بالساعة والساعتين.. غالقا عليــه أبــواب وحدته.. مفاوضا أمره بأكثر من أسلوب.. كان أبــي يكــره أن تــفرض عليه عــادات العــشيرة .. تحملــت أتعــاب الفقــر والسخرية وحدي..عشت في يأس أبدي وجوع عضال، لكــل أصناف الشهوات .. فلماذا أقيد نفسي بربــاطكم.. أنــتم أيهــا المتخمون بالبذخ واليسر..؟

مادمت أشقى لوحدي.. وأعاني غربتي وحدي.. فـاتركوا لـي حريتي .. لا أنا منكم ولا أنتم مني. هذا بضع من مبدأ أبـي في الحياة .. كان مؤمنا جدا بحريته ، دون أن يتدخل أبدا فـي رغبات الآخرين.. أنا هكذا ولتكونوا ما شئتم ..؟ !

يقول أبي دائما كلما حاول أحدهم مجادلته .. أو التشويش على إيمانه، بقضية حياته.. فأبي كما يقول هو.. صاحب قـضية.. لذلك لم يشأ أن يثرى على حساب المرحلة ..؟ !

كان عائدا إلينا كما في كل مرة.. متعب.. منهك القوى.. وكنـا ننتظر بفارغ الصبر عودته ، بعد عناء يوم من العمل الممـل.. في بلد لاكرامة فيه لعاملٍ أو لفقير..؟ !

الإعصار الذي جرفه .. لم يترك لنا فسحة لرؤية ملامح وجهه الأخيرة.. جرفه بغتة.. دون حساب لحجم الضياع الـذي سـنكونـه.. نحن عائلته وأحبته..

أهـل المدينـة تمتمـوا.. ومـنهم مـن تـنَمَّمَ بتلـك (الكـان) الطويلة.. و المبهمـة.. ولكننا في الريف.. أقمنا الطقوس.. انتشلنا رأسه من غـدير.. والتقطنـا باقي الجسد قطعا، من أماكن شتى.. لففنا الكـل فـي قمـاش أبيض.. ثم أهلنا على الحفرة التراب..؟ !
رحل أبي إذن فدعكم منه الآن .. وانتبهوا إلي.. أنـا المنفيـة خارج الجغرافية، الآتية من بعيد.. من أزمنة الخوف إلى زمن الريبة والشك المباح.. أنا المنفية التي أرهبوها وقـالوا لهـا

اصبري.. نفد صبري ولفظني الواقع المر.. جوف قــذارتكم.. فكرتي كانت أبي .. لذلك.. فأنا لست مثلكم الآن.. لم أعد أحيــا لغاية.. وإن شئتم فأنا نتاج حمقكم الكلي.. سيسعدكم أمري لو أنا تسترت على حقيقتكم، لتشع من جديد أمكنتكم.. ويمــنحكم العمر، أزاهير المشتهى.. أكيد فرحتكم كانت ستكون أكثر.. لو انتبهتم وأجهزتم علي.. حتى.. لا أعريكم هكذا كحقيقة جلية .. فات الأوان إذن.. وبغيظكم موتوا إن شئتم.. سأكتفي بلغتــي.. أعبرها كينبوع.. وأزرعها زهرات برية.. تعشقها الــشمس.. والنحل.. وعبير الصباحات البحرية اللذيذة..؟

أنتهي كل شيء.. فجيجل الأمكنــة.. تعبُرنــي الآن.. كــضياع أبدي.. وأهــجرها كفــرح ضئيل.. شرفاتها التي كــانــت مــناســك حــب.. لاشيء معهــا الآن.. تمنحــك إيــاه.. أو تدهشني به .. سواي بكل الذاكرة.. وأرصفة تُركت ســهواً.. وإرث كبير، من المآسي والأيتام .. لاشيء أبدا تمنحك جيجــل إياه .. وقد خربتها السنون ..بعدما تنكــر لهــا التــاريخ .. ونبشت قبورها الغوغاء..؟ !

تمت: جيجل جوان ٢٠٠٥

قصص..

صفيح.. ومرايا..

بجانبه تنام..أقراطها والمشط.. مرآة أفراحها.. وثيابها المبعثرة.. تفاصيل اليوم الخامل.. وضجيج روتين صاخب.. مأساة الشعب الخائف.. وكل شيء يدل على أسمال الحياة.. كل شيء في هذه اللحظة الخراب ينام.. يطول الليل.. يسترجع أمجاد ماض هذا الشعب العظيم..عاشق الحرية وتحدي الليل.. يحملق في قطع الصفيح ..الذي هو بمثابة السقف الساتر لعورة أهله.. آواه.. يتنهد.. لماذا يتجمع كل هذا الهم مرة واحدة.. ويجثم على صدره.. لماذا يستشيط في الخوف عن الجسد ، تتشعب فيه الأوجاع.. وتتلهف عليه الأطماع.. لماذا يحبه وقد تخلى عنه كل الوطن..؟ !.

ليحمل هم الجسد الفتي .. أناس غيره ممن أتاحهم أوسمته.. وصاروا ساسة وأثرياء.. هو..لا.. إنه في نظرة الكل وهم بالخصوص.. مجرد حثالة.. إنه قذارة من صدأ الماضي..!!.

يدير انتباهه دون أن يحيد بصره، عن شعب الصفيح.. يفكر بعمق في الذين يقولون كل شيء.. ولا يفعلون شيئا.. لانقاد الجسد.. وبالليل يقبضون ثمن قولهم.. ولا يهم إذا كان زورا.. أو كارثة.. ستحل على الجميع.. لماذا لا يتخلص مثل الجميع من هذا الأنف الطويل.. وقد جعله حديث الكل..؟

لحظة.. يجب أن يدرك يقينا، أنه وحيد الأنف..وأنه " حشيشة طالبة معيشة " لا غير..لقد قضى أربعين عاما ونيف في هذا البلد..غير آمن على أهله.. وجيبه.. وروحه.. وكرامته.. من يمنعه إذن من الهجرة الآن وهو القابع طيلة هذي " السنون " تحت قر الصفيح.. وأكوام الزبالة عافاكم الله .. يجب أن يتخلص الآن من قيده.. يجب أن يكسر السوط.. يجب أن يخرج الآن دون أن يودع أحدا .. أو يفكر إلى الخلف.. ولا حتى أن ينظر..؟ !.

منطقيا كان عليه المغادرة منذ أمد بعيد.. منذ أن هاجوا وماجو ترويعا.. قتلا واغتيالات.. عمي محمد.. ولده نصر الدين. .حسيبة.. راشا.. عمار.. لقد شاهد بأم عينيه، كيف جزئت أجسادهم النازفة بالعرق والحب.. كيف لفت.. وكيف أدرجهم النسيان رفوف يومياته المعتمة.. بالشتم والاسترخاء.. منذ أن راجت مهنة الرواة " والشيفون" وهو يعلم.. أن لا مكان له بين ريب همسهم.. لا مكان له بين طرفي العصا.. وهو الذي آمن منذ البدء ، أن الشد من الوسط بهتان وإثم مبين..؟!.

يشتط غضبا، كلما صعد حافلة.. أو استقل شارعا.. أو ارتـــدى مقهى.. أو جلسة سمر.. وسمع الرواة المغمورين على كثرتهم ، يخوضون فـــي أحاديـــث الـــسياسة.. يـــشرحون الوقـــائع بالتقريب.. وفي أحسن الأحوال يتشعودون..وإذا سألهم قـــالوا جملة واحدة " لا ندري..مـــساكن.. ماعلابـــالهومش "..شـــاب الرجل الشعبي.. ولم يعد قلبه يتحمل ثقل الحياد..!؟

بجانبه تنام.. يطول نومها.. يتحسس الأنفاس.. يرتعب لكل تلك الإنشغالات.. والحياة التي تمر فـــي جـــري غريـــب.. وبحـــث دؤوب.. عن طعام وشراب ودواء وكساء.. والإنسان إنما دم.. ولحم..؟

تنام..يطول الليل.. يتمطط.. وتستمر ضائقته مـــع الأنفـــاس.. تؤلمه حيرته في وقته يذهب سُدىً.. والـــذين ســـيقولون كـــل شيء.. ولا يفعلون شيئا لأجـــل الكـــل.. ولأجلـــه.. ذا شـــعب الخطايا.. وهذا وطن الحياد..؟ !

من جانبها يقوم.. يتمشى الهوينا.. يـــدخل غرفـــة أخـــرى.. يتناول جريدة اليوم.. بتصفحها.. عنوان رهيب.. وعـــريض.." دولة بوليسية تفتك بشعب أعزل " يغلق الجريدة.. وينز ألمـــا..

يتصور نفسه ملكا.. وهذا الشعب رعيته.. يصغر في نظر نفسه.. كيف يسكت كل هذا الصمت.. والرعية تفتقد في مجاهل الغياب.. لا.. هو شعبي... وليس شيئا آخر..كل ما عليه فعله هو أن يحرق الجريدة.. حتى يغسل عار من سكتوا في زمن الكلام..؟!.

بجانبه.. كأنها عناء ما تكبده من صبر.. وراق له الأعداء..هو الذي لا أعداء له.. عدا القائمين على امتصاص عرقه، من ساسة وتجار وسماسرة.. هو في الحقيقة شعبي.. و بإمكانه أن يتنفس.. ويدخن كما يحِب.. بإمكانه ترويج " الماريجوانا " نكاية في بقائه " شعبي" وانتقاما من طيبة أبيه.. الذي سن قانون الطوارئ.. في زمن طفولته.. وقال له " أمكث في الأرض يأتيك النصيب "..؟ ! وهو الشعبي الذليل.. بإمكانه أن يسكر حتى الثمالة.. حتى يصنع لنفسه جناحين.. يطير بهما.. ويرش بالبول، طرقات مواطني الدرجة الأولى.. وقصور أثرياء المأساة.. وهو الفقير.. الضعيف.. والشعبي الذليل.. بإمكانه الدعوة إلى جبهة ضد البؤس.. والدفاع عن صغار اللصوص.. المحكوم عليهم بالإعدام.. وقد ضبطوا متلبسين بأكل الخبز..

في لحظة جوع أبدي..؟ من يمنعه.. وهو الشعبي الذي لا رأي له.. من هجران بيوت الـصفيح.. والمبيـت فـي الـشارع.. وتدخين *الكيف*.. ومشاركة طبقتـه المطحونـة أفـراح الغم.. والبحث العابث.. في أكياس القمامة، بحثا عـن أشـياء مواطني الدرجة الأولى الزائدة عن الحاجـة .. وبيعهـا فـي أسواق الشعب الحقير.. الذي لا قـدرة لـه علـى الـرفض.. سيعيش هنيئا مريئا.. لو هو نزل من علياء وهمه الذي يسميه المبدأ.. طز.. أي مبدأ هو مؤمن به.. والأولى بالإيمـان .. هم أولئك الذين يسمون أنفسهم ساسة.. وتارة أعيان.. وأخري نخبة المجتمـع المـصفقة.. طـز..؟ ! كلهـم طلعـوا مـن فراغ..وكلهم فراغ.. وكلهـم كونـوا أرصـدتهم مـن عـرق أمثاله..؟! سيحسم أمره الآن.. لأن قلق التساؤل بدا جليا فـي عيون أطفاله.. وهم يتحفزون لمعارضة كل جاهز.. وعليـه أن لا يسن بدوره قوانين جديدة للطوارئ.. فلا نصيب لمـن قعـد ينتظر النصيب..؟ !

تنام.. وبجانبه أنفاسـها متـواترة..وتـارة قلقـة.. وأخـرى منقطعة.. كل شيء فوضى.. حتى سـيجارته التـي أشـعلها

للتو.. هروبا من ضيق البؤس، بدورها تستحيل إلـــى غانيـــة، تدمي رغبته في عينيها الذابلتين.. أي هراء وأي مصير..أيـــة أمشاج هذا العالم الغريب .. الضاج بالسخرية واللامبالاة..!؟.

على ظهر يديه برزت منذ مدة ولم ينتبـــه، عـــروق زرقـــاء.. كرسل شيخوخة مبكرة.. بدت مستوحاة، من معاناة صـــباه.. وشبابه الذي مر فجائيا.. وبلا محطة تذكره بأنه توقـــف فيهـــا يوما.. كي يسترد نفسا ضاع..لا شـــيء محلّـــى فـــي ربـــوع بؤسه..والأجواء فـــي الليـــل دخـــان وســـجائر..ولـــوم أبيـــه وتوبيخه..واتهامه بشرب " القاروا" ومقارعة النساء.. هو في الحقيقة مدخن شره.. ولكن رصيده من النساء واحـــدة.. فقـــط واحدة .. ويرفض أن يخوض في سواها.. من هي.. ؟؟ تلكـــم مأساته.. ! هكذا يقول..فهل أنبئكم وتخرسُون..لا تسألوا إذن ، فتلكم المشكلة والضمير..؟!.

والرجل قرر أن يصنع نفسه ومجده وتاريخه..قرر أن يكون.. لذلك هو الآن يفتش في دولاب فكرة .. عن طريقة تمضي بـــه وحيدا..كاشفة له عن آلاف الطرائق والخطط.. سينتـــصب الآن واقفا كي يواجه المرآة.. ومن ثمَ يتبرأ من بؤســـكم وثـــرائكم

الزائف.. دعوه يمر .. اتركوه على سـحيبته، يفـتش عـن منفذ.. لم تُتعبُوا أنفسكم فيه كفاية.. دعوه ينظـر خلـف مـا تلاقون.. وسيُغِمض حتى يعلوه الصفاء.. ومن ثمَ يـرى.. إن كان سيحطم المرآة..؟!

انتهى.. جيجل.. فبراير/٢٠٠٤

قصص..

الهاربة

كل ما في مقدورنا أن نعرفه هو أن نقول أننـــالانعرف شـــيئا ..فتلك هي ذروة المعرفة البشرية..؟   ليو تو لستوي: إذن..
سأمضي نحو الأصوات الليلية ، المنبعثة مـــن خلـــف الأنـــوار الباهتة والملقاة على هامش الأشياء..بكل وحشتها..؟؟ !
خلف الهضبة والعشب الكث ، على الأوراق المترهلة منزوعـــة الخضرة .. وفوق صفحة الماء المزيتـــة.. ســـألج المأســـاة الكامنة خلف تقاسيم الوجوه الحزينة.. ثم إنني لبريق العيون المغرية بالحب ، الراعشة بالإثم سأقول .. قفي..{ هناك غلط } الخديعة والخيانة.. أبداً لن يوقفا الحياة.. وقد قُدِرَ لهَـــا أن تستمر..؟ !
وهكذا مضيت لتوي.. مغطى بعليل الذكرى.. ومرارة الحكـــي.. منزلقا عبر زهـــوي، أســـفل الهـــضبة المغطـــاة بالريـــاحين، المشدودة بأشجار السرو والسنديان السامق..
كنت فرحا بذلك اللقاء الحميمـــي، مبتـــور الهـــدوء.. وكانـــت الرعشة الخفيفة التي أحدثها اللمس الطفيف لأصابعي.. وهـــي تجوس خلال راحتيها بتوسل.. وقعٌ شبيه بالصدمة الكهربائية المفاجئة.. { لقد صدت يدي بحركة لاإرادية وهي فـــي وضـــع

حرج.. مربك .. مرددة همهمات سريعة.. كانت شبه غائبة تماما.. وهي تكرر في همس . لا. لا. رجاء لا تحاول..؟ !ِ }
حركات وكلمات.. همهمات وموقف غريب.. أشياء
كلها صدمتني .. ولم أكن غيري.. وهي والبحر المترامي.. يزأر ذلك الزئير الأثيري المجنون..؟
استجمعت شتات قواي، دون أن أرفع أصابعي المطبقة عن أصابعها المرتعشة..
وقد أثارني أكثر.. ضغطها المتردد في خجل واضح.. وأنا أغرزُ نظراتي متعمداً..في تفاصيل أصابعها الطرية البيضاء.. دقيقة الخطوط والانحناءات .. وكأني بها مندهشة لفلتات لسانها اليسيرة، تاركة مساحة ألمها، مضجعا حيث نامت أصابعي في سكون..؟
متطلعة إلى عيني في وله.. وفي صمتها لغة أكبر من أن تلفظ.. كلام كثير كان بمثابة انفجار هائل، لو هي الآن.. تدفقت سيلا متواصلاً من العتاب والمناجاة.. متاهة بلا قرار.. سوف تبتلع مأساة العالم.. المائج.. لو هي أسرجت لعواطفها المكبوتة، صهوات عباراتها.. واسترسلت في ذرف النزيف بلا انقطاع.. سوف يحدث وبلاً أدنى ريب.. ما يفزع حتى هدأة هذا الاخضرار المولع بالدلع، لو باحت بلا عج رغبتها للحب.. والرأفة.. والوطن..؟ !
وفي عينيها الجرأة .. التكتم.. والأسئلة.. عمني كل هذا.. وما كان يبكيها في صمت.. ودون أدنى مكاشفة ظل صفاء وجهها، معترضا فرضياتي كلها عابرا بي.. من أفق.. إلى تيه.. كلما اقتربنا من كشف أحجية.. من أحاجي الغموض .. الملتف حول

كل الكلام.. وأسرفت في التخيلات.. جاراً خطاي نحو مستقر أكيد.. متوهما أن الأرض سوف تنشق.. كي تبتلع مأساة اللقاء.. وأن الحياة البائسة سوف تُطمر من غير رجعة .. ولن يمكنها بعد ذلك.. أن تتطاول على الحقيقة.. في جبن ووداعة زائفة..؟

إشارة يد رشيقة.. أعادتني إلى جو المكان الظليل.. كانت يدها البيضاء من غير سوء.. تنش ذبابة حطت فوق موج شعرها الشاعِر.. وسرعان ما فاضت جيوب فضولي ، فرحت أهيم من جديد في أرض التخيلات الممكنة.. سائلا نفسي لماذا تأسرني أصابعها كل هذا الأسر.. لما بياضها يضيء ليل داخلي الداجي.. ولماذا يهيجني زئير البحر المحدق أبدا في وجه السماء.. دون كلل.. في حين تطوقني هذه النظارات المتسائلة .. الهادئة.. الصامتة.. وكأنها صلاة ناسك.. عابد .. لم يعد بينه وبين جنة الرضوان، غير هذه الغلالة الرقيقة.. من مباهج الحياة..؟ !

الإنسان شر لابد منه.. هكذا وجدتني أنزع كبريائي الشاعرة.. ورأسي تموج بأفكار غريبة وشادة.. هامسا في أعماقي.. صوت ما..{ أهجرها اللحظة،أو أقتلها، فلا سبيل واحدة.. تقيك حر توسلاتها المكبوتة الصامتة..؟ !} ولكن ثمة عقل راجح ، ثمة خيط رفيع.. من قبس الروح الطيبة.. ثمة بقايا من الإنسانية، تدفع الشر.. تطهرا لأحاسيس من أردان الجهل.. وتطرد التكهنات الوشيكة.. لاحتمالات الجاهلية الأولى.. لذلك صاح في دخيلتي صوت مجلجل..{أحضنها اللحظة.. افتح لها قلبك من جديد .. قبلها صادقا.. فالشر مهما طغى، لابد أن

يقهر.. وهذا العليل .. وتلك السماء المحدقـة بـالأرض فـي هيام.. آية أخرى.. فاستمع.. وليخرس هذا الشيطان .. !}
ورحت أحدق في مرافقتي مرتعباً .. والبحر يخرج ذلك الزئيـر المهيب.. وهسيسُ الأوراق، تلامسها الريح في رقة واهتياج.. يدغدغ عاطفتي أكثر.. كلما طال البقاء ..فـي حـين.. كـان للخلاء ذلك الصدى البعيد..؟ !

في ذلك الأصيل كانت الحياة خارج المدينة.. جيجـل.. تلقـي بظلالها الهادئة، على جو الريف الجميل.. ولم يكن هناك أبداً.. ما يعكر علينا جو نزهتنا..ونحن نعاكس بأقدامنا، ندى الليلـة الماضية.. حيث ليزال يبعثر نفسه في انسياب، فوق حـشائش المرج، الذي قطعناه في تؤدة والتـذاذ..وهـو يبـدو كـاللؤلؤ المنثور.. وكأن الحياة هناك.. قد وهبتها الطبيعة حلة اقتطعـت من زمن بعيد .. !
فلا صخب ولا هتاف ولا أزيز .. ومضينا متآلفين.. ولا تـزال مباهج شطوط المدينة المتناثرة ، تشدنا إليها في حنين عذب .. كلما قطعنا شوطا في مضينا تاركين للمدينة، بناياتها المتطاولة ..وضجيجها المجنون.. فالبحر وهو يمضي بـك بعيـدا عـن المدينة.. لا يفتأ يحيطك بغموضه المسترسل، حافرا في ذاكرتك المزيد من الرسوخ.. بأن المدينة مهما انتشرت فـالبحر أبـداً آسرها..؟ !

كان الكثيب الذي أوى مجلسنا أخيرا.. يرتفع عن الطريق العام الذي تعبره السيارات بمسرعات متفاوتة.. بعشرة أمتار أو أكثر قليلا ، بحيث ارتقيناه صعداً ، متعثرين من حين لآخر، بنتوءات

الأرض الندية وأشواك العليق.. وقد حجبتنا عن الطريق العــام أشجار السرو التي لا تزال تنمو ببطء.. بحيث لم تتــرك لنــا أغصانها المتقاربة الملتفة.. غير فساحات ضئيلة، يمكننا مــن خلالها.. مراقبة ما يجري أسفلنا.. على الطريق.. الــذي بــدا كأخدود يلفه السواد.. وكأن صاعقة ما.. قد أحدثته منذ سالف الأزمنة..وإلى جانبنا امتدت طريق السكة الحديدية، على امتداد البصر، لتلج فيما بعد أدغال من الغابات ، مخترقة باطن الجبال العملاقة المتحدية في شموخ.. وقد انغرز بعضها في البحــر.. في حين بدا الأزرق الكبير..أكثر إصراراً، على تفتيت أمواجــه بالتساوي فوق نتوءات تلك الصخور.. المنحدرة إلى وســطها في عمقه الراعب.. وكأنها تقف سداً منيعــا، فــي وجــه أي طوفان وشيك..؟ ! ببطء شديد تنزلق الشمس نحو الأصــيل.. وبانحدارها عبر طريقها المعتاد، بدأت حركة المــرور، علــى الطريق أسفلنا تقل .. وبدأنا ننعم بــبعض الهــدوء وصــفاء اللحظة.. لقد ارتسمت أخيراً على أســارير الرفيقــة.. بعــض إشراقات الحبور.. والتناغم الموسيقي الهادئ .. وأخذت فــي استحضار قواها، التي لم تكن غائبة.. ولكنها كانت مــشتتة.. شاردة.. وطريدة زحمة من الأحزان والجــراح.. لقــد خُــذلت أحلامها.. واغتُصبت في عنف.. أسمى آيات البراءة لديها..{{ بُتر صفوي إلى الأبد.. فأنا الآن لعبة خشبية .. مجــرد خــيط دقيق ، لنشر غسيل الاختزال.. مجرد وتر يُعزف مــرة.. كــل أربع سنوات..؟ !}}

هكذا استهلت أشجانها.. وبدا وجهها أكثر نضارة من ذي قبل.. وعَلت جبينها الأنثوي ، علامة اندهاش غريب.. واغرورقــت

لحظاتها بعبارات باكية.. ولكنها ظلـت معدمـة بـين شـفتين مكتنزتين.. تعوزها الجـرأة.. أو ربمـا.. كبريائهـا الجـريح ..الدامي.. وهي التي ارتأت تأجيل بوحها إلى حين.؟
وانطرحتْ على أرض الكثيب في لامبالاة، مرتكـزة بمرفقيهـا على أوراق الأشجار المترهلة.. والعشب الندي الكـث.. وقـد أطلقت من أعماقها.. زفرة نجدة جاهشة بالبوح ..اللين اللذيذ.. بينما فارقها ولو إلى حين.. ذلك الكدر الذي ظل طول الطريق، يربك مزاجها.. معكرا علينا جو النزهة اللطيف..؟

لقد وعدني بالحياة ، بجنة المثل.. ومز اهر القيم.. لقد أغراني وسذاجتي.. في خضم أحداث سريعة وعنيفة.. أدخلني مملكـة الأوهام، ليأسر روحي وقلبي.. ويحرث جسدي النبيل.. كـأي أرض خصبة.. وتوقفت برهة.. لتُخرج من قلعتها الحـصينة.. داخل سجنها السرمدي ..زفرة نجدة أخرى..هي أقرب إلى نـار حقيقية ، سـرعان مـا تأججـت فـي عينيهـا الـصافيتين المخذولتين.. واسترسلت في كي عواطفها لاهبـة أشـواقها.. وجنات أحلامها المنطفئة.. بلا عج ندم لا يقهر..؟
لقد احترفت البغاء.. قالت.. وتوقفت لتعتدل في جلستها أكثر.. وقد تناولت يدي.. حيث سجنت أصابعها داخل قبـضتي ..وأرد فت.. إنما أفعل هذا حتى لأغيظك أكثر.. وأخفف عليك من وقع ما ستسمعه.. لأنني مدركة تماما أن كلمة {{ بغـاء }} تثيـر الاشمئزاز في نفس سامعها.. وقائلها معا.. وانفلتت من بـين شفتيها ابتسامة شبحيه باهتة.. متطلعة إلى عيني.. بـشوق خائف ومحموم.. لتعاود الغوص من جديد في أردان ماضـيها التعس، بحيث أضحى وجهها أكثر تجهما .. حتى أنـك تحـس

بالألم يتكلم بدلا عنها، مردفة ولكن هذه المرة بروية وبطـــئ، تغالبها الدموع.. التي أحكمت منابعها جيداً فهـــي لا تـــسيل .. وقد تأكدت تماماً أن سيلاينها بات لا يجدي..؟

مند تلك الليلة الماطرة الهوجاء، حين ألفيتني أقف حائرة وجها لوجه، مع العراء وقرص البرد الذي لم أعرف مثله من قبـــل.. فهو أشد وطأة من العراء نفسه.. كان مزيجا من الذل والعـــار والتشرد، لواحدة مثلي.. ألفت حياة الدفيء الرغيدة .. كل هـــذا الكم من الأسى.. كان يقف في صدر طريقي.. وكنـــت امـــرأة وحيدة و خائفة.. مرتعشة الجـــسد والأحاســـيس.. مـــضطربة الشعور ، لا سبيل أمامها غير ألمها المرير.. ثم النفـــي إلـــى أرذل الخطايا..ثمة سحابة عملاقة.. تشكلت في ســـمائي آذاك ، لتسد علي منافذ العبور نحو النجاة.. كانت هي ســـحابة العـــار وقصور العشيرة..؟ ! سحابة اللارجوع.. بعدما لطِخ جبينـــي بالعار.. ووصمت من طرف الأهل بالخيانة العظمى..؟ !
ليس لأنني أحببته.. ولكن .. بسبب هروبي منه وتركهم بـــلا غطاء.. يتجرعون مرارة فشلهم.. وقد كنت صفقتهم المربحة.. التي أبرموها معه دون علمي..؟ ! أوه.. علي أن أخجل مـــن نفسي .. أن لأريك وجهي ، بعدما اقترفته من جنون وســـذاجة .. متوهمة أن زمن الرومانسية قد ولـــى.. وأن الحيـــاة هـــي مجرد حفنة من النزوات.. والنبلاء.. والمواعيـــد الماجنـــة .؟ عفواً سيدي.. لقد أخطأت في حقك كثيراً.. آه كثيراً جداً.. كـــان علي أن أختفي ، بذل المجيء إليك.. بكل هذا البكاء المتوسل ، ملتمسة عذرك.. مستجدية إنسانيتك التي لم تخذلني أبـــدا..؟ ! إن الماضي والذكريات.. وكل صلاتي بعالم الأحياء والنـــاس..

كلها أشياء باتت تؤرقني.. وتزيد في تعاظم خطايــاي..وأنــت رجل كثير الرأفة بأحزاني.. وكلما زادت تعاســتي ، إلا وازددت رأفة بضعفي.. لا لشيْ.. فقط.. لأنني وحيدة.. وإنسان.. هــل تذري أن ثمة نفوس كثيرة هي مثل نفسك .. طاهرة ونقيــة.. ليس لها أن تعيش.. وسط هذه القذارة من أسمال الحياة، حيث الكثرة من النفوس الخبيثة.. والتي تتخذ لها الكثير من الأشكال والصور، حتى تجعلك تنقاد لهــا فــي يــسر، دون أن تــدرك حقيقتها، إلا بعد فوات الأوان.. تماما مثل ما حدث لي، مع ذلك المرموق.. حيث أحالني إلى حطام ، دون أن أبــدي أمامــه أي مقاومة تذكر..؟

كنت مخدوعة بنبله المــصطنع.. وبــصورة الرجــل الرقيــق الشهم.. ولم أكتشف فيه الشخصية الدُنجوانيــة إلا بعــد مــا أحالني.. إلى امرأة تبيع جسدها، على أرصفة الشوارع لعابري السبيل.. ! ؟

امرأة كان بإمكانها أن تكون مثالُ المرأة العاقلة .. حيث نعمــة البيت والزوج.. والأسرة الشريفة..امرأة عفيفة طاهرة الــنفس والجسد.. لـــيقاتــلنــي الله.. لماذا أسهب الآن فــي ســكب هذه الزفرات من الحكمة.. وأنا هي أنا .. المرأة التي تنازلــت في يسر، عن شرفها مقابل غرور متطاول متكبر مجنون . !

ليقاتلني الله إذن.. وليسحق أيامي بالذل وصنوف العذاب ؟.؟

أتذري.. لقد أحببتك ... أجل... أحببتك بقدر ما خــذلتك فــي صراحة وقحة ، إنه لمن الصعب علي ..أن أذكر الآن.. كيــف كنت أرى فيك الصديق ، الحبيب والزوج، العطوف المــتفهم.. وأنا أحتضن طيفك دافنة رأسي بين أحــضانك.. كنــت أهفــو

وأشتاق باستمرار إلى سماع صوتك.. أوه اللعنة.. على كبريائي المتطاول وأرستو قراطيتي البلهاء.. لقد كدت أن أفوز بشا عريتك ورجولتك معاً.. لقد عشت تلك الأيام التي عرفتِني إليك.. سعيدة مرحة .. ولكن طبيعة الأهل المادية التي فطروني عليها.. كانت أقوى من أن تتقبل وضعك الاجتماعي الحرج.. ومن ثمَ بات مستحيلاً.. التصديق بتلك الخرافة البائدة.. وذلك النغم الرقيق الهادئ ..الذي كنت تهمس به في أذني..حيث كنت أرى فيه جنونا صبيانيا منك، تصدره ترسبات نفسية عميقة الجذور..وكنت تراه مبدأك وسداد خطاك. ! ؟

الآن لاشيء.. عدا ما اعتَبرته أنت الصح.. ورأيتُهُ أنا الخطأ.. كنتَ مؤمنا بحبك.. وكنتُ كافرة بذلك الخيط النوراني الرفيع.. لن أخفي عليك الآن.. وقد ذهب كل شيء.. أنني كنت صبيانية أكثر من اللزوم.. امرأة ينقصها العقل.. ومن ثمَ فهي عديمة الرأي.. امرأة لا ميزان لعواطفها. ! ؟
فقط ما أرجوه منك الآن.. هو.. أن لا تتوه.. أو تحزن ..على ما بدر مني أذاك .. وأنا أعلن على ملأ من أهل المجون ..أنك لا تُلزمني في شيء.. وأن قراراتي لا دخل لأحد فيها.. لقد تراء لي آذاك.. أنني أكثر نضجا من أن تُنار لي السبيل.. حرة.. وسيدة.. في الطريق الذي أسلكه.. والرجل الذي أختاره.. معذرة.. ولكنني كنت مقتنعة وراضية.. وأنا أوبخك في غير اكتراث .. أو حياء..{{أنك رجل بائس مترهل الأفكار.. رث الثياب .. يقول ما يثير فقط.. عاطفة الآخرين..}} وكان عذري .. أنك عديم الأناقة، مجرد غجري.. يقتات على اكتناز

الحصى.. مستلهما من البحر.. كل ذلك الحـــب.. والـــصدق.. والإخلاص.. !

إنني أذكر جيدا.. ذلك الموقف المخجل ،الذي وضـــعتك فيـــه.. وذلك الشحوب الذي غزى وجهك.. وأنت لا تصدق أذنيك.. لقد أغرقتكَ بسيلٍ من قذارتي.. زاهية بلغـــوي ذاك.. وإلـــى الآن.. أدرك أن تلك اللحظات قد نقشت.. على لوح أقدارك إلى الأبد.. فلا السنون.. ولا التقادم.. باستطاعتهما، محو ما حدث، مهمـــا حاولت.. فقط أعترف ..أنني أريد مداواة جرح عليل..وأنك بلا شك.. لن تغفر لي بسهولة ويسر.. مـــا اقترفتـــه فـــي حـــق كبريائك.. لقد تركتك لأحلامك وشاعريتك.. وكنت متوهمة أنني فكرت بعقل.. تضحكُ لامباليةً..{{ أنا المغرورة البلهاء، كنـــت أظن أن لي عَقلا.. وأنا التي جردت نفسها من كل عاطفة، لقـــد بدا لي ..أن سعادتي وأنا أسحقك بقراري المجنون، ســـترفرف في سماء رغباتي .. لقد كان الهدف في نظري ونظر العائلة.. أسمى من التغني بالحب.. ! ؟}}
أوه... تأسفُ من جديد وتردف .. كنتَ تنحتُ عاطفتـــك مـــن دم.. وجاذبيتك من قوة خارقة.. وظللتُ أنقاد باستمرار إلى تلك القوة اللامرئية.. حتى بعد ما سحقتك بقراري.. ولكن حيـــاة الترف كانت أقوى من أي عاطفة يعوزها الرخاء..؟ !

وفي خضم مشاعر جديدة كنت أتخبط فيهـــا ، لحظـــة إرســـال السماء لي بخاطب.. لم يكن يتوقعه أحد.. عدا الأب وشـــراهته البرجوازية.. نسيتك .. آه نسيتك وولجت عالمـــا آخـــر مـــن عوالم الحياة اللآمتناهية.. قلتُ.. مادام الله قد رعـــاني بهـــذا

الرجل القادر، على إسكات ثورات أبي.. فلا بــأس أن أنــسى جميع من أحبني قبله.. حتى ولو كان كله صدق..هكذا خمنت وكنت راضية تماما باختياري.. لقد كان مــن النــبلاء .. مــن أعيان المدينة الجدد إنــه الـــــــــــ.....؟
لقد بدا لي أول الأمر رجلا في وداعــة الأطفــال.. وسـيماً.. رقيقاً.. عطوفاً إلى أبعد الحدود.. يعيش ثراءً فاحشاً.. ففرصــه في الحياة غير فرصك..أنت الذي لاتملك غير وفائــك وحبــك، الذي حولته أنا إلى جرح سيغور طويلا.. في لحم إنــسانيتك.. هل تريدني صادقة .. لقد أغراني بماله ووســامته.. وهكــذا بالتقادم، بدأت أنساك.. و أدخل حياة جديدة ..لم اكتشفها مــن قبل.. في تجوالنا وخلواتنا التي توالت وكثرت .. بدأت أتخلص من عقدة الخجل، الذي كان يعمني كلما ظهرت رفقتــك فيمــا مضى. . خاصة أمام تلك الطبقة الأرستقراطية مــن المجتمــع الضاج..؟ !

كنت وإياه نقضي السعاة الطــوال فــي مكتبــه الفخــم .. أو التجوال في المنتجعات .. والشواطئ الرومانــسية.. وبمــرور الأيام ازدادت ثقتي العمياء، برجل الإمكانيــات اللامحــدودة . وتدعمت أسس الثقة بعد كل هداياه ..التي لا تحصى ولا تعد.. وبخاصة هديته الأخيرة.. الممثلة في شقة هديته التي أخرست كل دفاعاتي . وبدأتُ في الانقياد الأعمى ..ولأنني امرأة عديمة التجربة.. استطاع بحنكة الرجل المجرب.. أن يخدعني بيــسر ورغبة.. بعدما أخفى علي وبتواطؤ من أسرتي.. كل ماضــيه المبهم.. ربما كنتُ صفقة من صفقاتها الكثيرة..؟ !

فأسرتي اللعينة . وهذه كلمة حق.. لا تـــعير للإنسانية وزنا.. كَلمةٌ سِرِهاً سرها.{{ الدنيا دوارة.. والزمن خـــداع }} الأهـــم عندها قبل المهم .. وتحصيل المال دون السؤال عن مصدره.. من أقدس مقدساتها..لذلك كان لابـــد أن أتحمـــل مـــسئوليتي.. وأواجه مصير ما أقدمت عليه ..؟ !

إن تلك الليلة الخالدة المشؤومة..التي هرعت فيها إلى الشارع وأحضانه الباردة .. هاربة من سذاجتي ..و ثرائي المزيف..من رجلي المرموق ..وأنانية شياطين الأهل .. لم تزل راسخة في ذاكرتي.. تمر علي مشاهدها في جلاء .. فالـــساعة الحائطيـــة وهي ترصد الزمن، بتكتكات واهنة.. لم تزل ترن في رأســـي إلى الآن ..وأنا بأشواق لاهبة.. ورغبة عارمة، أنتظر تمازجـــاً موصولاً.. دق جرس الباب.. ويا ليته مدق.. ويا ليتنـــي مـــا هرولت إليه، في تغنج ودلال..أكاد أغمض عيني بين أحـــضانه المتوهجة ، لتتحد وشهوتي الملتهبة.. وقد أثارها قدومه مـــن سفره البعيد..؟ !
كانت الساعة العاشرة لبلا..ولم يكن بيني وبينه غيـــر مقـــدار شهقة.. حين دفعني بلطف .. كان كافيـــا لإطغـــاء شـــهوتي المسعورة تلك.. وهو يغرق في بهرجة من العذوبة والترحـــاب .. فاسحاً لمرور الرفيق المشؤوم وهو يبسط يديـــه.. علامـــة كثيرا مرسمها النبلاء لمرافقيهم .. في أولى مراحل تعارفهم.. واستقرت داخل الرواق المزخرف.. آية أخـــرى مـــن الجمـــال القاهر..كانت.. امرأة فارعة الطول ، رشيقة العود.. في نحـــو العشرين من العمر، ذات عينين زرقاوين وأنف دقيق صـــارم،

بدا النقطة الأثيرة لذي.. وأنا أقف قبالتـــه، وكأنـــه يتحـــداني بصمته وشموخه ذاك..

بالخارج كان المطر.. وكانت الريح المهتاجــة تزفــر زفيرهــا المجنون.. رغم ذلك وصلت عروسه الجديدة زحفها فـــي ثقــة وإقدام .. متحدية إخلاصي وسنين عمري الفتي، لرجــل بـــدا دمية {{قراقوز}} تحركها شهوة مريضة.. ومختلة الأركـــان .. مرت بجانبي عبر الغرفة ثرية التأثيث.. حادجة إيـــاي بنظـــرة عطف.. فيها احتقار.. كانت نظرة فاحصة شاملة، مـــن يـــدري ربما كانت في اللحظة نفسها، تطلق في أعماقها قهقهة انتصار وشموخ .. لقد قتلتني بنظرتها تلك .. فعدوت قدر ما استطعت إلى غرفة مجاورة.. عاقدة العزم، على البقاء فيهـــا.. ريثمـــا يمكنني كبح جماح غيرتي الغضبى.. ولكنني ألفيتُ نفسي دون أن أدري.. أقلب في الأشياء الساكنة للغرفة.. والخزانة.. دون أن أتيقن عم أبحث بالذات .. لتتبدد شكوكي أخيراً.. وأنا أمسك بمعطف الفرو الذي.. كان هديته الشتائية الأولـــى.. لجـــسدي الجميل.. فتدثرت به وهرعت إلى الخـــارج ..مفجعـــة بالليـــل والانتظار..وبخيانة الغربة..؟ !
بالخارج كانت الريح تعوي بسعار هـــستيري.. وكـــان المطـــر الغاضب.. وأرتال الأشجار، التي بدت لي..خائفـــة.. بائـــسة.. ويائسة .. على طول ذلك الشارع.. وهي ترتجـــف.. ملتويـــة أحياناً تحت وطأة الريح وجنون المطر الغاضب .. وركضت في الشارع وحيدة دليله.. تحت الأضواء الباهتة.. والعاصفة تكـــاد تحجبها.. لأنتهي إلى زاوية ، من زوايا الشارع..الـــذي كـــان قفراً موحشاً.. وكانت ثمة قاذورات تبعثر نفسها على طولـــه،

بطرقه.. وأرصفته المتداخلة.. وقد جرفتها السيول، مــن كــل حدب وصوب.. هنــاك انتظــرت واقفــة.. لاهثــة.. مبللــة.. ومصعوقة.. كقطة فِزعة.. في حين بدا جسدي.. كــأي عــراء ..جلده المطر..وجرى في داخله برد البلــل.. وانتــصبت فــي وقفتي أكثر.. مثل أي عمود مهمل.. ومتروك لنفــسه ..علــى طول ذلك الشارع.. فهو لا يتزحزح أبداً.. وكان ثمة عمود آخر يستقبل في اللحظة نفسها .. غصن شجرة اقتلعتــه الــريح.. فبدت أوراقه تحت وطأة المطر محمومة.. خائفة .. حتى خيــل إلي ، أن نشيجها وشيكاً.. ! ؟

ولم أتزحزح وظللت واقفة فترة أطول .. مخدرة بالبرد.. حتــى عمني ضوء كاشف.. وأزيز محرك ســيارة قــديم.. وصــوت جهوري يهتف .. يا إلهي .. إنها ترتعش.. وآخر.. سيجرفها السيل .. لــنحملها مــن هــنا على المســتشفى ..؟ !
لا.. لا.. إنها إحدى خدع النساء المحترفات.. ذوات الخبــرة.. لنتركها لخداعها الهالك...هتف آخــر.. ! ؟
وتذكرتك.. وحبك الكبير.. وأدركت مدى فجيعتــي وضــياعي الوشيك.. وقد راعني مشهد الزوج العائــد بجاريــة ســفر.. فسقطت لتوي أرضا.. وأحســست بــاهتزاز عنيــف ودوار.. وأنفاس لاهبة متقطعة .. ولم أكن أدري ما يحــدث بالــضبط.. وقد جمد هول الموقف قدرتي ،على تمييز الأشياء إلى حين .؟
بعد ثلاثة أيام عن حادثتي المشؤومة.. أفقــت مــن رقــادي القسري العنيف، لأجد نفسي مضطجعة على سرير بائس، فــي غرفة بسيطة التأثيث.. هــي ليــست غرفتــي ذات الريــاش الجميل.. وفي الجانب الآخر كان رجلاً.. مجرد رجــل.. يقــرأ

صحيفة محلية، دافناً رأسه بين طيات صفحاتها.. فأدركت ضياعي..وحمقي الكلي.. أنا المرأة المتكبرة السليطة.. أستحيل وفي عجالة من أقداري..إلى هول من النعيب الفاجع..؟؟ !

بهذا التأوه .. كفت مرافقتي عن البوح بما آلت إليه حياتها.. دون أن تعلق مأساتها، على مشجب أي كان عدا نفسها.. وأسرتها المتواطئة بالصمت..؟ ! ربما بالعار.. !!
تاركة لعيونها مساحة بوح أخرى. وقد استدارت نحو الجبل البعيد..وهو في انتصابه يلامس الشمس، أو يكاد.. مداعبا إياها بقمته الشامخة.. وقد دنت منه أخيراً معلنة عن احتجابها الوشيك..؟ ! ولم أكن قد هيأت نفسي لمثل هذا العذب السلسبيل.. من شرودها البحري، يتدفق كلاما متألماً.. من بين شفتين مكتنزتين . وقد سياجهما الهيجان المختزل منذ أمد.. مما زادهما روعة.. كلما انفرجتا عن صفين من أسنان سوية البياض.. والروعة .. والاشتهاء.؟ !
وباحت.. أو هكذا تراء لي.. عن أشياء ليس من اليسير على امرأة متمرسة البوح بها ..؟؟

لقد أفاضت علي من أمانيها حتى التهلكة.. ولم أكن غيري وهي . وصف لامتناهي، من شجر السنديان السامق..والسرو الملتف.. المتقارب المنبت.. وأسفل السكة الحديدية امتد على مدى البصر والأذن .. زئير البحر الهادر..في حين بسطت نوارس بيض، أجنحتها للريح.. بدت غاية في الصغر، وهي تقتفي أثر قارب صيد عائذ.. من رحلة متاعب.. حيث ميناء

القلعة .. تلك البقعة النادرة ..الطافية فوق فج عميق من الماء الأزرق ،المضاء في توهج.. وقد انعكس عليه شعاع الشمس، الآذنة بالمغيب.. فبدت تلك القلعة تأسر نفسها وسـط صـخور ثابتة مند الأزل.. وسياج نصف دائري مـن شـتى صـنوف الأحجار..؟؟ في حين تنـاثرت بمحـادات الأرصـفة القديمـة للميناء.. سفن غاية في الدقة.. ونحـن نلقـي عليهـا نظـرة أخيـرة.. قبـل انحـدارنا فـي أرض الكثيـب.. ذات النتـوء المتفاوتة.. نحو أول محطة على الطريق العام..؟؟ !

قصص..

تقاسيم ..على وجع النكسة..

طلــع الفجــر .. أشعــلت سيجــارة.. و نفثــت دخانهــا في المرآة .. و حدقت في وجهي.. ينعكس عليها بكـــل ذلـــك الحــزن الليلـــي و ينكسر .. و تساءلت في عيــاء تــام .. " كيــف لي أن أقضي ليلي ساكنا.. و ســاهرا كانتـــــــا.. فيـــــــه عينـــــــاي مــصوبتيـــــن.. نحـــــو جهـــــاز التليفزيــون .. و الأعـــراب.. خلانا يتفرجــون متحــدين.. و الــصواريــخ ، فـــي ركـــض عنيـــف و مستمـــر.. فـــي شــوارع و مساجـــد العراق .. و أخـــرى تتبـــرج.. و تقصف حتـــى المقعدين منا.. بحقد الطائرات.. و كيد المنتقم .. ولا تفتأ.. تدخل الزناة ديارنـــا.. فـــي غــزة .. الواحد تلو الأخر .. كي تبيع العرض العربي مجانا .. و مقابل ذلك ندفع لها بترولنا.. و دنانيرنا الذهبية ... ؟ !
أي عالــم هــذا .. و أيـــة جغرافيـــة قذرة.. وضعنـــا التاريخ فيها .. تساءلت من جديــد .. إنقطـــع التيـــار الكهربائيـــي فبهــت.. و صرخــت .. " أيـــن أعيــش " خلتُنـــي فـــي بغداد.. فازداد حنقي أكثر و التيار يعود.. لأنتبه فجأة.. علـــى واقـــع آخـــر ، لا يقـــل دراماتيكيـــة عـــن شـــوارع العـــراق.. و بيوتـــات فلسطيـــن .. لا حركة.. و لا أصوات.. عدا صمت بهيم.. يذِلنا ويشيح..؟ !

تـــرى كيـــف كـــان سيتصـــرف ساستنا.. لـــو هـــي نفسهـــا الصواريـــخ ، بـــدأت فـــي الركض .. و الالتفـــاف حول أحيـــاء.. و طرقـــات مدننـــا المعتمـــة .. كيـــف سيشاهد العالم مأساتنا إذن.. و لا كهرباء في المدن .. و هـــل نكون آذاك.. متحرقين لمائدة..وحليب..وخبز..؟ !

و دوى انفجار.. و هرعـــت إلى الجوار.. أحتمـــي بمـــسكن و كوب ماء .. و شاهدت كتلة من النار.. و وابل مـــن الـــشهب، تخترق سماء بغداد ، مطيرة في طريقهـــا، أشـــلاء النـــاس و أرواحهم.. في ذلك الحي المسالم.. و الـــراض بالنـــصيـــب .. و مراسل يلف نفسه بالرعب.. و يحتمي بخوذة.. ثم يغرق في الظلام .. ! أطفأت جهاز التليفزيـــون .. و تـــسللـــت هاربـــا مـــن جحيم المشاهذة .. أحسســـت بـــالخزي.. و بلعنـــة مـــن اللـــه.. و وخز في رأسي.. و ضياع لا مثيل لـــه .. و جثـــي على ركبتيه عجزنا العربي .. فقـــررت أنـــا المواطن الـــشعبي .. أن الوقت لم يعد مناسبا إطلاقا لفعل الحياة ... !!

لـــم أعـــد أحتمـــي فقـــط .. بغشاء من خيال، إنما صرت مـــع الكل.. مذعورين من خوفنا المستمر .. خرجـــتُ للتـــو مـــن صمـــت الأنظمـــة.. كل الأنظمـــة .. و وضـــعت فـــوق مـــرآة الشاشة العاكسة لهزائمنا.. رداء أسودا .. و دفعت بخوفـــي إلـــى قـــرار سحيـــق .. و خرجـــت مـــن بركـــة.. أخالنـــي غطســـت فيهـــا منـــذ الولادة .. بركـــة فيهـــا الكـــلام.... و التمنـــي.. و الحســـرة المريضة.. واغتسلـــت تحـــت شـــلال الكبريـــاء .. و فجـــأة صـــرت معجبا بحجمي ..و قـــد فـــاق

الآلة الغربيـــة .. قلـــتُ لماذا و أنا بكل هذه الروح.. لا أتحدى مسيري الآلة.. و أسير في الشوارع العربيـــة، أحثهـــا علـــى الاغتسال من قذارات الساسة و العمولة .. فكلنا يعني تعطيـــل أي قوة أخرى ... ؟ !

ودوي انفجارآخــر.. و الناس أمـــام الـــشاشة مـــشدوهين لا يعلقون على شيء .. فقط اكتفوا بعيونهم و قـــد أطلقـــت لهـــا قلوبهم العنان ، فهي تسيل حافرة على وجوههم خطوط حيرى .. قلت بعدما أدهشتني عواطفهم.. " يا أهل المقهى ثـــوروا ، كفوا عن المشاهدة و الترقب الحـــذر و الوعيـــد.. و اجرفـــوا كالسيل كل غثاء .. ؟
يا أهـــل المقهى عودوا إلي .. اسمعوا و ارجعوا عن تهويمات النفس البشرية .. لنعقد الصلح بيننا و لنترك هـــذا الشعـــب.. و قـــد سجنتـــه أنظمتـــه دهـــورا ، يخـــرج و يتنفس حريته .. و لنجعل المقهى فقط.. لاحتساء الشاي.. و تدخين السجائر ... !!
و تركـــت المقهـــى علـــى أمـــل أن يستجيب ، غارقـــا فـــي صوت الانفجارات و نقيق المعلقين.. الذين أرسلتهم أنظمتهم ، في وفود رسمية بحثا عن السبق الصحفي.. و لا يهم إن كـــان ذلك مقابل موت الجميع..؟ !
فـــي الشـــارع ســـرت وحـــدي فـــي مظاهـــرة عارمـــة .. و في رأسي لافتة كتب عليها " لا " للحرب .. الموت للخصيـــان .. لم تعجبني اللافتة.. و قد بدت لي عباراتهـــا أقـــل قـــوة .. فمزقتها و كتبت أخرى " الموت للحياد "

أعجبتنـــي فكرتـــي و تطرفـــي ..و رحت في جميع الـــشوارع أسير ، مندداً بالحيـــاد .. و بيـــدي عمامـــة أحرقهـــــا .. و بالأخرى لوحة نقشت فوقها حروفاً عربية .. " النـــصر لنـــا .. النصر لنا ... "

فـــي مظاهرتـــي ســـــرت وحـــدي.. و كيفمـــــا شئـــــت .. تارة في موكب حزن .. و تارة في حشد غضب .. و تارة فـــي موسم برد .. سرت و تظاهرت و لـــم أزل.. حتـــى لفظتنــــي آخـــر زاوية، عند آخر شارع في أحقر دشرة، لم يشرق فيهـــا نـهار الكهرباء .. و هدأت الأصوات و الاحتجاجات في رأســـي .. و لم تعد تمر أمام عينـــي أرتـــال {{العـــسكر}} والآليـــات المدججة

متحدية قامات النخيل و دهاء الصحراء العربية .. ا؟

السمـــاء زرقـــاء إلى حد مدهش.. و النجوم تلمع.. و الليـــل يزداد هديـــرا ، كلمـــا اقتربـــت من أجـــواء الـــشاشات فـــي المقاهيـــي .. و سرت في الدروب التي و ضعتني فيها الأقدار ، مواطناً أليفاً من عامة الشعب .. يسكن حيث يـــسكن النـــاس الحقيقيين..ويمارس مثلهم.. حياته بصـــدق .. هنـــاك فـــي قيعـــان المـــدن .. حيـــث تترعـــرع الحيـــاة الأبديـــــة.. و تتمخـــض ظـــروف الثـــوارات.. لتلـــد للعالـــم كـــل مائـــة عام، حقبة جديدة .. و عالم مغاير .. لكن.. مالذي ينقـــصني.. و مم أشكـــو .. !؟ طرحـــت سؤالـــي علـــى نفـــسي.. فأجابتنـــي السمـــاء المدهشـــة .. أن الجـــو مناســـب لبـــدء

الجد .. و الخروج من أجواء المشاعر، التي تحسسني بالدونية و التقمص و الردة .. !!

و أعـددت قلمـا و ورقـة .. لقـد ارتأيـت أن أكتـب إلـى سيادتهم.. عريضة أشكو فيها، من إجحافهم في حق الشعوب.. {{أيها الساسة العظـام ..؟ ! و بعـد .. لقـد نسينـا مـن فـرط الدهشـة، أن نكتب إليكم منذ الزمن البعيد .. و خـشية منا على ذهاب ملككم.. و زوال سطوتكم .. نحن الشعب العربي ، نوقـع بـدم أحاسيسنـا .. نحن خير أمة أخرجت للناس .. و إننـا بعـد إذنكـم لذاهبون، إلى كل سفارات العـالم.. كـي نضع أمام أبوابها .. طلقة.. و كأس حليب .. و ليختـاروا.. و لتكونوا من الشاهدين .. !؟ « التوقيع أخوكم شعب »

اللحظة صافية.. و السماء مدهشة بزرقتها.. و أنا قد ولجـت مـن الآن بحـرا، مـن الإنشداه.. لحالة الأمة ترقد في سكون مريع .. لقد سألني ذات يوم صديقي " شعب " كيف لا أستطيع أن أفرح و أنظم إلى قطيع الفرحين .. و قـلت لـه بغـضـب مـن اليأس .. " يكفيك يا صديقي أن نموت غمـا " .. و مـع ذلك أصر و قال .. ليتك تعلم كيف انهدم الإنـسان .. فهـو لا يرى نفسه إلآ قذارة بالية ، أو ماردا متكبرا .. ؟ لقد استمتعت بحوارنا العـابر و القـصير.. ذاك .. آه .. تلـك كانـت أمسيـة جزائريـة غضبـي .. سألـت شعـب . " لمـاذا هي أما سينا كالحة .. و يبدو أننـي كنـت أستفـزه.. لأعـرف سبـب عزوفه .. ! في وجهه بدت الدهشة ، ثم العمق الكلـي .. " سر في خط مستقيم.. و ستكتشف مع الأيام .. كـم هـو

ثمنك مرتفــع .. ؟ " هكــذا نطــق بعمــق.. و مــضى ... و رحت على طــول ذلــك الشاطئ.. أدندن.. مدغدغــا أغنيــة شاطئيــة حزينة .. محاولا صياغة لحن، لمشروع تلك الكلمات المتفوه بها حديثا.. صديقي " شعب " .. أيها الجزائري .. أيها الجزائري ، كم أنت باهض الــثمن .. و كــم أنــت حزيــن ..لأجــل كــل تلــك الأشــلاء، تطيرهــا قذائف الحقــد.. و صهيونيــة الانتقام .. !؟ " و انهمر غزيرا.. صوت الشعــب، مجتمعــا فــي أذنــي.. " إنحــرف يمينــا .. إحــذر أيهــا المعتوه.. إنك تسقط في البحر !؟ .. تراجــع .. تراجــع " و اتبهت في ذلك المساء ،على أمة تهوي بالكامل.. فــي متاهــة السبات..؟ !

المغامرة أحيانا ضرورة لفعل الحياة .. و أيــة حيــاة تلقاهــا و صــدرك يضيق .. و ملايين الصور تتحدى كل رغبــة فــي الحياة .. و تمدك بالأجساد المجزأة..و المعجونــة، بــالردة و العار .. المخلوطة بفجائع اليتم.. و الترمــل.. و الــصرخــات المحفــورة فــوق الــشفــاه .. و شعبــان وحيــدان.. و أعــزلان.. يطوقهمــا العسكر.. و يرميهمــا العــالم، بــسلاح الصمت و اللامبالات ..؟ !
لمــاذا أنــا هنــا .. تساءلــت.. كيــف نزلــت كــل هــذه الأحقــاب، إلــى أسفــل التعب.. كي أستريح ..؟ و مشيت.. و خييــل إلــي أن " شعــب " يكلمنــي .. نعــم.. لقــد اعتــاد أن يخاطبني، كلما اشتد اللغط.. و ملأت الدهشة أشياء الحيــاة .. و فتــح بــاب آخــر، مواجهــه لبــاب طوارئي.. و دخل أطفال من مختلف الأعمار و الألوان .. كانت تتقــدمهم

براعتهم.. و في الممشى ، كانت تقف أسئلتهم و حكاياهم .. و كانوا صامتين .. و لا أدري إن تكلموا فمـــاذا سيقولـــون .. و بـــأي لغـــة كانـــوا سيخاطبون ..أولئك الغلاظ القساة ، الـــذين أزهقوا أرواحهم .. لم يكن من الـــضروري، أن تتوقـــف بهـــم مركبة الحياة ،عند أول حاجز للصدفة.. كي يغتالهم الموت.. و هم بعد بيض القلوب ... !

كنـــت لا أزال ثائرا و متحمسا.. قبل أن ينفتح الباب المواجه، لسرداب حيرتي الأبدية .. قلت.. سأبحث عـــن حـــل لباقـــي الأطفـــال .. و لكـــن عيـــون أخـــرى.. أكثـــر انكـــسارا و اكتظاظـــا بالفجيعة.. اسطفت وراء تلك المتـــاريس الـــسوداء، للموت المباغث.. و نادت ..
" هناك من يجب أن يقول لكل هذه الوفرة من الأموات .. يجب أن تستمر الحياة .. ! "

و همـــس فـــي أذنـــي أخـــي " شعـــب " هـــهؤلاء أرامـــل الحيـــاة .. لم يزلـــن بعـــد.. شابات.. و قادرات على الزحف.. و انجاب القامات ..؟

و دوى انفجار.. و لكن هذه المرة، في رأســـي .. و ســـألني " شعب " و بدا أكثـــر، من ملحاح .. لماذا تحـــشـــو رأســـك، بكـــل هـــذه الأسطر الجاهـــزة للنسيان ، ما جدوى أن تقول..؟ ما جدوى أن يقرأ الناس .. ! و دوى انفجـــار آخـــر .. و مضيـــت عبـــر ذلـــك المنحـــدر النـــاتئ ..لأجـــراف الأســـئلة المدهشة .. دافعة أياي رغبة شعب الملحاحة .. و قد طورهـــا

إلى قدرة ، هو الآن يريدها خارقة .. حتى يعقلن جنونـــه ... !
؟
و انتبهـــت علـــى نفســـي ثائـــرة.. فـــي مطـــب غـــامض..
على أسئلة شعب.. و فلسفته غير المهدبة .. و رحت أوبخه..
و تطاولـــه علـــى قدسيـــة النص .. أنـــت حقـــود أرعـــن ..
يحزنك حد الانتحار ، أن نؤرخ لنكسة النفس البشرية .. أنـــت
مطرود خارجي .. لن أصدقك بعدما قلت .. ؟ و تواصل الـــسير
دون أن يكلم أحدنا الآخر .. رغم ما للحدث من تداعيات..؟ !

إذن.. هـــل يمكـــن أن يحدث.. و يتفجر ذلك السر الإنـــساني ،
بكل الدهشة التي ظل الإنسان يخبؤها . و يشتهي بإلحـــاح أن
يعيشها، دون أن يظهرهـــا للإنـــسان.. هـــل كـــان مـــن
الضروري، أن يقتلوا البراءة فينا.. حتى يستوي العـــالم .. و
هل.. من اللزوم، أن تظل الفجيعة.. وشما سرمديـــا، ينتـــصب
في كبرياء على وجوه.. تلك الأكثرية من النـــاس .. و هـــل..
قدرهم أن نظل نحفر.. و نحفر، بأظافر حافيـــة.. و متعبـــة ،
بحثـــا عـــن لحظـــة فـــرح، تختفـــي تحـــت تلـــك الطبقـــة
السميكة ، من الوجع.. و اليأس المدبب داخل بلـــور عيـــونهم
.. !؟

و دوى انفجـــار آخـــر .. هـــذه المـــرة داخـــل ســـاعتي ، و
همس شعب داخل نبضي .. و لم المتاعب .. من حق الفـــراغ
أن يمـــارس عليـــك، سلطـــة جنونـــه.. و يملأك باليـــأس ..
و يعنـــف أعصابك أحيانـــا .. و ربمـــا يحـــدث أن يعانـــق
روحـــك، فـــي تواضع.. حتـــى يخرجـــك مـــن ضـــباب

الهواجس، القابعة في ظلمة الوقت.. المكشر في غير صـــالحك .. ؟ !

.. لا يهــم .. أن تعانــق الروح، خـــواء اللحظـــة .. و لا يهــم ..أن ترتـدي عنـد المـسـاءات الحزينـــة، نـــدرة أفراحــك.. و تظهــر بمظهر الإنفتـــاح علــى العالـــم .. إذن.. ليعلـم الإنسـان الـذي يعـدم الإنسـان.. أن النـاس في شرقهم لا يموتون.. و لا يوجد سببا آخر لموتهم ، غير ما يبثُّه.. و يقترفه من زيف و إثـم غـربهم .. و أن الحيـــاة ستتسمر بلا أحقاد.. فقط .. حين يدرك العالم ، أن لكل إنـسان رائحته الخاصة .. و قدرته الخاصة.. و إبداعه الخالد .. !!

و حـاول شعب، بعد هذه الكلمات ، أن يبدو هادئا.. و ســألني بلطف رقيق .. مادمنا من بعض، فلا حاجة مادية بيننا.. كــي نظــل مخلصيــن لهذا الانتماء..؟؟

برؤوس أصابعه مسح بتحسر.. فوق جوع أمعاء الأمة .. و أردف .. المهم أن نمتلك دموعــا لمزيـــد الرثـــاء .. و ضحك باستخفاف، من شراهة الملوك.. والساسة العِظـــام.. و انزلقت آهة من بيــن مواجعي.. و أشــرت بيـدي .. أن توقف يا شعب .. لا حاجة لي بمزيـد الكـلام .. و شـيئا فشيئا.. امتلأ واقعي برضى مهزوم .. و رحت أطرد رائحة الشيطان، من أفكار شعب.. و أحرق شـغفه بالـشجن ... لماذا أنت بهذا الشجـن يـا شعـب .. سألتــه.. و ربــت علــى كتفه فتــدحرجت أشــواقه.. دفعــة واحــدة، نحــو

الانحدار.. و الغوص فـــي متاهـــات الأجوبـــة ، غيـــر المحتملة .. و قفزت دمعتان مترادفتان.. و انزلقتــا فــوق تقاسيم الوجع.. المشدودة إلى مساحــة الوجــه ... و راح يتابع بشغف احتمالي .. حالـــة دهــشتي .. تختمـــر أنينـــا موجعا.. و هي تنط فوق رعـــب فراغـــي ..وبهدوء أبتسم شعـــب.. و علـــق ضحكتـــه المدويـــة علـــــى مـــشجـــب الفجيعة .. و شيئا فشيئا.. تعالى وهو يردد.. أيها العربـــي .. أيها العربي .. كم هي نكستك مفجعة.. وكم أنت غريـــق الصمت و الحياد ...؟ ! **تمت: جيجل/٢٠٠٤**

قصص..

إلى آخر الليل..

كمثل شجرة في الربيع يلتهمها الجمال الأخاذ..مثـــل المـــاء عذبة..شهية الأنس.. والأحاديث المسائية..نـــسمة صـــيف، تحيي ضمأ الصحاري..وجسدي منذ ألفي عام، طـــين بـــلا كساء.. ؟ !

" رجينا ".. تجبر غصنا، عبثت به يده البشرية.. تمـــرر حريرا.. وتذرف دمعة.. ويبكي فمها فجيعتها في ورد.. زهقت ماءات سيقانه..تحكُم عقدة.. وتشُد برفق، على موضع الكسر.. رباه.. وتدعو الله ..أن يعشقها الورد.. والزهر.. وتعرش في حنياها الأعراس.. وهمسات الرمل.. ومأثور النادر من صـــدف الأعماق.. رباه تتـــأوه.. كيـــف ألقـــاه.. والأعـــوام تمـــر.. وسحابتها تغطي مطلق الصفو.. امتداد الازرقاق.. أحبـــه يـــا ربي.. فكيف يدري، أني منتهاه..سرده .. والحكي العليم..!؟.

*رجينا * في الدار وحيدة.. غرفة لا تؤنس وحـــدتها.. ثلاثة ظلمات.. وسقف مستطيل.. والباقي حيط، تشوهه باب ظلت مقفلة ، منذ أن أحست بلذة الألم، تدغدغ صدرها الفتـــي.. وحدها تنام.. وحدها تقرأ.. وحيدة تُطِلُ من عليـــاء ســـجنها..

رجينا.. تجبر وردة كسرت ساقها..تدعكه بلطف حذر..وتحيي الوردة الضريرة، بأنفاس زكيه.. تحكم عقدة.. وتبرق عيناها برجاء، تخشى أن يخيب.. الشعر أن تشعر الآخرين أنك تحبهم..أن تقاسمهم أحزان خيبا تهم.. وأن تجعل الورد يمتعهم.. وهو يفتح للحياة أوراقه.. ويجمع من حوله كل عاشق فيمنحه الكلام..!؟.

جسدي منذ ألفي عام.. طين بلا كساء..الوردة التي أحب.. كسرت ساقها.. وأنا منذ ألفي عام كائن بلا مكان..خليج أحزان.. والقوارب التي عبرت أتلفتها العواصف..لا رفاق لذي في صقيع الهوامش.. المنفى يعض على أصابعي.. وميلادي بعض انتظار..؟؟.

جيجل بعض الشتات.*.ورجينا * طفلة جنية.. حولها المكان الأزرق.. والفراشات ترش أزهار الحضور بماء الورد.. والنحل يقدم عسله الجبلي حرا.. والأكواب من عذب الكلام..* ورجينا * تقرأ للمساء.. وللفراشات.. والنحل أشعارها..؟

أنتِ مثل النحلة قلتُ- لا تشربُ إلا من عبق الأزهار..لا تحطُ إلا على شرفات الرياحين..ظريفة وعذبة..ممتلئة.. ولحظاتك لا

نهاية لها..أحب أن أجعلك مبتدأ القلب.. خبره.. وذهابي الأزلي
،إلى خلجان الأنثى.. وضفاف المستحيل.. وأنا منذ ألفي عام..
لا صديق لي.. وكل الذي ظننت أنني أمتلك شيئا فيه.. إنثـــال..
وتفرق شيعا. لم يبقى لي غيرك.. فهل تهربين إلـــى حيــث..
يتوهم الناس أن غربتهم حريتهم..؟!.
*رجينا * عذابات الروح.. وفيوضات البرزخ .. تناغي قمرها
ليلا.. وتحيك لصباحها حرير الكلام.. تزيح كلية عــن فجرهــا
كابوس الوطن..وتسرح شــعرها لبهجــة المرايــا.. تملــؤني
بالشوق.. وتقول للهمس.. كل الحب..كل الوطن..على صـــباح
بهي تشرق روحها.. فتحلق مع النوارس في غدو، إلى بحــور
الشعر وصخور " رأس العافية ".. وقد تناثرت أطيافا للحــب..
وذكرى لكل غروب ، لا يفتأ يشرق أزليا..الحــب أن تمتلــئ*
رجينا * بمشهد الأسراب.. لطيور تهاجر أوطانها.. وجهتهــا
البحيرات العائمة لشط " بني بلعيــد " ومقــام " ســيدي عبــد
العزيز".. حيث تتخضب أجنحة السمك الطائر بالماء.. وتصنع
رعشتها.. أعراسا لعشا يا جيجل الصيفية..!؟

الصيفُ.. صيف.. والمدينة عائمة، في خيال رطب نــدي.. *و رجينا * بحر.. وأصداف.. ومواسم استثنائية للــشدو.. وزرع الحياة من جديــد، فـــي أرض الفيوضـــات والتـــأني..عذبــةٌ الروح..مسرارة ومليحة.. بهية الطلعــة.. رشــيقة القــوام.. صافية لبن.. ممتلئة.. وعميقة مثل الكون.. وأسرار الأزل..!؟
منذ ألفي عام.. وأنا أجري وحــدي.. والأوبئـــة.. والكـــلاب المتشردة.. تطاردني في كل زقاق وحين.. منذ ألفـــي عـــام.. وجسدي طين بلا كساء.. شــكل مـــن الفخـــار، مزخـــرف .. ومجوف.. كالذي تحتفظ به عجائز القرى المنفية، على رفوف مشارف الغــبن.. والــضياع الأبــدي.. لا مــشكلة يــصعقني التثاؤب.. ويجلسني سحابة يابسة مـــن اليـــأس ، يقــدم لـــي سيجارة.. يشعلها.. ويأمر بالانتظار.. وهو يغادر صيفي ، إلى بلاد الظل والغويات.. وأنا لم أزل أنتظر وطنا لن يجيء.. ربما امرأة تمنحني وطنا.. ربما غيمه حبلى بكل المطــر المحيــل.. على الحياة.. !
" لا مشكلة.. يا وجه النحس ".. يقطع حبل تواصــلي صـــوت منفضة السجائر..أطيل النظر فيها، فتحلني إلى ضـــياع آخـــر،

ويشتد لغط البؤس وخراب الممكن داخل رأسي.. وأستحيل إلى خيال بور.. وتشققات مفجعة ، تقف حائلا بيني ودنيا النـــوار، وجنات* رجينا *..التي تجري من بين يـــديها ومـــن خلفهـــا الأحلام.. والمواسم البهيجة.. أيها المنتشي بالصداع.. قـــف.. يستوقفني الحائط العتيد لحيينا.. وقد مر عليه الكثيرون قبلي، فمنهم من قضى.. ومنهم من هاجر إلى حائط ما.. وما بدلوا.. ولكنهم ظلوا بلا وطن.. ولا سماء.. المعذرة أيها التائه خـــالي الوفاض.. لا امرأة.. لك.. والوطن لن يجيء..هذا أنا الآخـــر.. أتكلم عن وقوع الذات شظية، في جسم المعيش..؟!

منذ ألفي عام.. وأنا على باب المدينة وحيدا أقـــف.. والـــريح صر صرا عاتية.. فجأة ينفجر ضغط السنون.. وتتدفق المدينة سيولا بشرية .. تجتاح جسدي الأرصفة.. وتنغرز في عيني ، أعمدة الكهرباء المخربة.. والأطفال الـــذين بـــالأمس غـــدتهم مدينتهم بالشح.. وشبوا يتسولون في أزقتها.. كبروا ونمـــت لهم مخالب رهيبة.. ينشبونها الآن في وجه كل عابر ســـبيل.. منذ ألفي عام.. والمدينة التي أخبئها في مطلق الروح.. تهرب من ذاكرتي كل حين.. وتنموا لها حصون منيعة..تزداد إيغـــالا

في التجريد..وإطار من خشب القول بحجـم المـدى، يطـوق الأبصار.. ويحد من كل إبداع..؟!.

منذ ألفي عام.. والمدينة التـي أخبئهـا فـي مطلـق الـروح تشاكسني تارة..وتارة.. تناغي أمنية قديمة.. وتـستحيل إلـى رعب فضيع.. وقهقهة مفجعة.. وأنا منـذ هاتيـك الأعـوام.. والقرون.. لـم أزل أليفـا ومواطنـا لا يخـوض فـي أمـور الساسة..أقرأ الجرائد.. وأصفق للرسـمية منهـا.. وأتـسكع باستمرار عبر أزقة مدينتي وحاراتها..هاتفا عند كـل تجمـع بحيات الرئيس.. الذي أنعم الله عليه بوفد يرافقـه، فـي كـل حين..وبالليل أقدم احتجاجاتي.. لأم أنهكتهـا سـنون الوحـدة المتبرجة، عبر ذاتها في شكل أخاديد.. وتجاعيد وجع..تقـول الأم.. وماذا يريد الأعمى غير بصيص ضوء.. وبدوري أتساءل عن أي ضوء يبحث جمعنا، مادامت حياتنا تظلمات نزفهـا ولا من يجيب..؟

هذا جيل يابني..تقول الوالدة..ماله الجيل يا الوالـدة.. أسـأل الوالدة.. جيلكمُ الضاج بالعبث.. المتوج بالمآسي.. تردفُ أمي في مرارة مرهقة..وطمعًـا فـي شـيق الحـديث..أسـتجدي

لديها..أحكي يا لوالدة..ماله الجيل..ولكنهــا تقــرر الــصمت.. وتنام متكئة على مشارف سنواتها المائة..!؟

*رجينا *.. لا شيء يحد من أفق ثقتها بإنسانيتها..لا حــاجز بينها وأنوثتها..لا عائق أمام تحليقها، عبر أفق لحظة لبستها.. واختارتها البدء والتواصل.. وحافز المعنى.. !

تشبكُ أصابعها.. وتترك للماء عذوبتــه ينثــال حــرا.. بــين الضوء.. ورعشة الرغبة.. تغني* رجينا * تقــول.. حيــاتي مطر. .حبيبي استحالة.. وأنا جنية الخلجان.. والصلصال.. في الليل تحضن وردها.. وتمنح الوقت كل التعرج ،فــي يــسامين أشــعارها..تكتــب للرفــق.. والطفولــة.. وتنــشد للمنفــى غربتها..تهمس للأنثى.. فتفيض ملء المكان..في عينيها الحب والحزن ، ولبؤبؤ يهما المساحة المخبأة، لفرح الآتــي.. فــي الليل تخطو..* رجينا * عمرا آخر.. وتفرش لعطرها من تألق فتنتها..تفتح نافذة لآخر الليل..تتمطط سيقان الورد.. الغرفــة تعبق شذا.. تتكدس الورود.. صفا مخمليــا فــوق ســريرها.. تضطجع.. تغطيها الأوراق..* رجينا * تنام..!؟

تمت: جيجل: مارس../٢٠٠٤

قصص..

العري.. والفجيعة

أغوص.. و أنت دائما ذلك الأمن البعيد المفتقد..تلك الرغبة القاهرة في الانصهار..أذكر

أن اشتياقي إليك مفجع..وقاتل.. وأنك الفاكهة النادرة المشتهاة..وأنه عليا الزحف بجسد عاري فوق حقل من الشوك.. والحجارة الدقيقة المسننة.. حتى أصل إليك ..وقد استحال جسدي إلى خيط رقيق من الدم ، وقلبي إلى خطيئته ذليلة وشرسة.؟

إذن مشكلتي أنك متاهة.. وخشيتي كلها أن تبتلعي نفسك، كي تخلصيني منك .. وأنا الذي عرفك جيدا.. وسبر أغوارك..أحيانا.. أجدك ممتعة، فأغوص.. وأسمع طرق المطارق..يدقون الصدأ.. ويغرزون في لحمك مسامير التهافت..أفتح عيني على اتساعهما، فيصعقني مشهد الأعراس، الراقصات ورتل الساسة يحملون قطع اللحم نيئا،

فوق أطباق غريبة، كأنها جماجمنا صـقلت.. ولمعـت بـالون السائد..هو هكذا شيء أحسه مثل ألم الصداع المـزمن.. مثـل الخواء.. يسكن لحظة خراب..؟!

أغوص أكثر.. ويأتني اليقين محملا بالشك..والتعفن والبشر.. اللافتات.. والخلافات كثيرة.. الهوة شاسعة.. وكبير الـساسة يخطب في الناس، أن لا تحزنوا.. ولا تفرحوا.. وكونوا علـى الحياد.. دعونا اليوم.. وغدا أمركم شورى.. يـصفقُ الـشعب والأكثرية المحايدة.. في حلقي آهات.. وسكاكين وجع..أثـلام.. وأجوبة تنوء، تحت أحكام بالنفي.. أعناق لينة تمتد.. وعجلـة زاهية الألوان تدور.. وتدهسُ ببرجوازيتهـا، تلـك الأعنـاق البريئة.. ولكن المحايدة.. !! أصوات بلا رجاء ،هـي نتيجـة طحين الحياد.. تنبعث مخنوقة.. و مغلوبة على أمرها.. وركام يـستجدي خلاصـةُ مـن الأصـوات.. والخطابـات.. والمشاهدة..؟ !.

هكذا هو الحال.. وحين الغوص أكثر، تصادفني الوجوه التـــي ألفتهاَ..زمن الصفو.. وتبادلنا الجلد معا، تطل وتختفي.. تمامــا كالومض.. وإحساس عام بلا

جدوى الأشياء يجتاحني، كلما جلست متأملا كي أراك.. وصوت مدوي يهيب بالأعماق.. ولا عدو بعينه..عدا الإحساس يــوقظ ثائرة الشك.. وصور ومشاهد لأشياء حقيقية، تثير الإحبـــاط .. والإقرار بالعداء لكل الأشياء..!؟

أغوص أكثر.. فينحصر الجو من حــولي مـــثقلا بـــالتواطؤ.. والأعماق أكثر حيادية.. وعيــون مرصـــعة بـــالكلام.. بريئـــة ومسالمة.. وفي زاوية ما.. من عتمة خفايا المجهــول، ثمـــة خوف آخر..أكثر حيادية..أكثر لبسا..أكثـــر ترصـــدا ونتانـــة.. فلتختفِي كل هذه الأضواء.. وهذه المدن.. ولتُبنى زئبقية مـــدن أخرى، من نار، سفرنا الأول.. ودخـــان احتراقنـــا المهـــين.. فكرت.. وهممت أن أفعل، فُشلتْ قدرتي بفعل قـــوة غريبـــة.. وخفية.. وتسمرتا.. ساقاي في التيه، فلم أفعل شـــيئا.. عـــدا انتباهي على وقع أليم، لهواجس تُغِيرُ على رأسي.. وتـــضربه

كوحش أسطوري.. وأسئلة تطرح، عن ميلاد معزول.. وأيـــام حافية.. وأصوات معدمة.. وبؤس هائل يجـثم فـوق عـري فاضح.. تدوخُني الصور.. والمشاهد.. والأصـوات.. وأشـياء مدننا الزائفة..أمر.. وأمر.. نفس البـؤس.. ونفـس الكـم.. ونفس الرثاء.. ثمة أناس .. لا أملك، إلا أن أرثي لحالهم..هـم فقط.. وأنا أصادفهم.. وأسمعهم يبالغون في الاسـتجداء، مـن يثيرون هدأة ثورتي.. تهافتهم على الـولاء، يحفـزُ مـسامي للثورة.. فأثور على لباس الحياء.. فأنـا لا أقـدر، إلا علـى مجاراتها والتجرد من إنسانيتي.. والتسكع عاريا، نكايـة فـي منطق هؤلاء.. النـاهقون بالثقافـة والـسياسة.. والـشعراء السذج.. منهم.. والكتبة{{ الموالي ؟ ! }}

وانحسر الضجيج داخلي، حتى خفـت.. وعـصا تـدق علـى رأسي.. وسوط يلهـب قامـات النخيـل.. وصـوت قاصـف يردد..عن مولانا نصره الله..عن سيده..عـن أمريكـا أرادت.. يقول الابن..اذهبوا باركِكم الابـن.. والأب.. لحظـة يتوقـف السوط.. ولكن الصوت يستمر..لا ضير مـن أن تبقـوا علـى

عمائمكم.. فقط.. أضربوا كل طارئ. طري.. مــسالمٍ يعتــرضُ السبيل..؟ !

وأستيقظ على فكرة ما .. هي أقرب إلى الصفع، فأرى في ظلام التيه.. عينان يبرزان إلي، من جوف زوبعة ملتفعة بالصمت.. فأحن إلى وقع إقدامك، تــدهس عــشب الحقــول الــشاسعة.. فأشتاق أكثر.. للغوص بعيدا في عمق لا متناه..أراك.. أســمع الخطو والهسيس.. وهبوب المساء نسمة تقــشعرني.. فأهــب للوثب.. متدحرجا بآلاف الخطى الدامية.. وثمة أحزان عميقة، تنامت في وجوه بريئة.. تشدني.. تجذبني النظرة الأكثر بعــدا فيها.. تتوزعني الأعماق والشــساعة، فــي هــدوء متمــاوج وانسيابي.. ولأن لاشيء مثلك،أنطرح بعيدا عن العالم ، حيــث اللا شيء سواي.. وموسيقى طفولتي.. ومطر رقيــق، يقــرع الفضاء بحنو مجنح.. ومئات الينابيع تحيطني.. وتــصب فــي فمي من عذبها..أضمك حنانا.. وحنوا.. وصــبابة.. وأهمــس لأذنيك.. أنت التي أحبها وكفى .. فجأة ينفتح البعد.. يصير أنت .. وتدخلين علي امرأة، مديدة القامة.. شفافة.. فأعــد العمــر

أياما معلقة، فوق مجيئك المفاجئ.. نائية.. وشـاحبة كـذكرى غابرة..سرنِي هذا الحضور المفاجئ.. وسألتُ.. كيف نجـوتِ من الموت..؟!.

أدهشكِ السؤال.. واستيقظتُ على أملي الزاحـف.. وبعذوبـة صوتك ..وبراءتك أجبت.. بلى.. أنا لم أمت.. فقط... قتلني صفائي العميق.. وفجأة.. انغلق البـاب.. وصـرتُ وحـدي.. والعالم أكثر ضيقا.. أكثر مأسوية..؟ !

مرة أخرى.. يهجرني الدفء ، فأغوص.. يحتويني المنفـى.. وأحاط بالعدم .. اللحظات نائية، في خلاء قصي، يحيطه الفراغ الهائل.. والمكان الهامش.. هامشية أمكنتنا.. وبقاؤنا.. وهـذا البصيص من ضوء الحياة .. ألمسه كأنه البرق، ينتشلني من متاهة الدونية.. أكمله فيشيح.. أسأله فلا يجيب.. ولأنه زمـن القيظ .. أدخن سيجارة، في حضرة هذا الزيف.. متعمدا وجهه المعتم.. كي أنشر حرائقي والهِبَابْ..؟!.

ينفصل عني أناي .. يصرخ في.." لعنة الله على الدخان".. يتعثر في لفظه الأخير، صادما رأسه بالسعال.. رداً للكرامة الجريحة.. أدهسُ السيجارة ، تحت قدمي.. وأزأرُ.. لاحولَ، لي.. لامكان..؟ ! الصوت، مرددا صداه الهباء.. أغمض عيني.. أفتحهما.. لا مكان..؟ أغوص.. أصطدم بالانتماء.. وتملأني الضحكات البريئة.. لأطفال يأسرني زهوهم اللذيذ.. وفي عيونهم يُشع المرحُ.. والفرحُ.. والطفولة..؟؟ بكل إنسانيتي، أحاول التقرب إليهم.. فيهربون..المحادثة.. فيشحون في هدوء عذب.. بريء.. حتى البراءة، لم تعد تثق بتكبرنا.. وريائنا.. وأيدينا المزروعة بالدم.. والقسوة.. و الشراسة..؟ ! **أغوص.. و أنت دائما، ذلك الأمن البعيد المفتقد..تلك الرغبة القاهرة في الانصهار..أذكر أن اشتياقي إليك مفجع وقاتل.. وأنك تلك الفاكهة النادرة المشتهاة.. وأنه علي الزحف بجسد عاري، فوق حقل من الشوك والحجارة الدقيقة.. المسننة، حتى أصل إليك.. وقد استحال جسدي، إلى خيط رقيق من الدم .. وقلبي إلى خطيئته ذليلة.. وشرسة..؟أعرف هذا.. وأذكر باستمرار، أنني لا أقدر إلا أن أجعلك كتابتي.. حبيبتي التي لا تعشق غير الكي، في مواطن الفجيعة، سأكون صريحا**

وأقول..أنك فكرتي المسبقة.. والمتأنية.. عن شيء اسمه ..الولاء..؟ أغوص.. و أنت دائما ذلك الأمن البعيد المفتقد..ذلك الاحتجاج الذي لابد منه.. وأنا الآن بحاجة إليك، لأنني في حاجة ، إلى حوار ومواساة صامتة.. في حاجة إلى لحظة.. وإياك.. براري.. ومطر رقيق.. ينسل خافتا من بين أوراق تينة.. ما.. وينقر سقف بيتنا.. وقد لامست جزؤه العلوي غيمة بيضاء..؟ !إماذا عنك الآن.. وعن هذا الشوق الهائل، الذي أحمله لصمتك الشهي .. ماذا عن اعتذاري لوجهك الجميل.. لمياه البحيرة الزرقاء، تعكس لوجهي.. انكسارات عنيفة.. لحزن عتيد.. !!

لعينيك.. كما للماء.. لغة أخرى ،غير التي نعرف.. لعينيك.. وهذا التناسق للندى، يتجمع كويرات دقيقة، فوق حشائش طفولة غائرة.. نفس الإيحاء.. نفس الرجاء.. امتلائي وشعوري بخفقان دمك.. يجعلك الجذور الأصل، التي كلما غصت فيها.. تعلق بي عيون الشعب.. ويسلمني أمانيه " عريضة" أرفعها لولاة الأمر.. فأرتجف.. ليس خوفا علي ..

وإنما رأفة بالأماني.. وطيبة الشعب.. وحيث يقبــع الــشعب.. دائما لاشيء.. عدا هول البؤس.. ومرارة {{الحقرة ؟}}

في بلاد الشعب.. أهيم.. وتلفعُ أنفي رائحــة الــضياع.. فـــي شساعة من التربة والضبابية..ألامس القاع محاولا تخفيف ثقل الفواجع.. يترامى عثرات في طريقي أنين واضـــح.. لأكثريـــة هؤلاء الناس.. الذين أصادفهم يوميا.. وأجالــسهم.. وأنـــدمج فيهم، بكثرة واستمرار.. يا الله غالبيةٌ.. ومغلوبة على أمرها.. كثرتها.. هلاكها الأكيد ، المتجدد.. الدافق..؟!.

و أتساءل في نفسي.. ما الذي جاء بي إلى هنا.. وينبعث صوت من الأعماق "يولد الفساد من العجــز.." وعلـــى طــول الخــط أصدق.. أننا والشعب عاجزون.. لذلك نسهم بكل هذا الفــساد، في البر والبحر.. فالقتل والحرائق.. الاختلاسات والاغتيالات.. وهذا البيع المقنن، لثروات لا تنضب.. وضع الألــسنة وبتــر الحواس.. عدم إيصال الفكرة والهروب عجز.. تكبر.. وأحيانـــا تجبر..وتارة انتحار..؟!.

وحدنا.. أنت والشعب وأنا.. والفاصل بيننا وخشب قــولهم .. أزمنة من الفواجع.. ودهورا من الفوضى و التــسلط.. وقــول العربي " يعيش العربي لما فوق وتحت السرة " وهذا الكــلام الكثير، عن شساعتك وأشيائك الرائعة..عن أسرارك التــي لــم يكتشفوها بعد.. عن تقلبهم عنــد أول صــرعة ويــسكي.. أو جرعة مورفين.. حشاشين هؤلاء الخــوارج الأقــزام.. وهــم يشتمون ويصرخون.. ويدقون بعنف، فوق الطاولات الخشبية.. أنك البلاء.. وأنك التعاسة كلها.. وأننا البقر.. والحمير نحمل ثقــال ســيئاتهم.. وأننــا مجــرد أصــوات.. يحكمــون بهــا أحلامناالسادجة.. وحين يصحون تماما.. يهرعون فــي عقــد مؤتمراتهم، كي يزيحوا..ويزاحون لغيــرهم.. وحــين يبــرع أثرياءك الجدد، في نعتك بالشح تارة.. وبالبخل تارة أخــرى.. يقفُ الناس مشدوهين مذهولين.. وهكذا دواليك نهرب.. وتارة نغرق في بحر ليلنا، أو متخفيين كــالظلال ، تحــت شــرفات أوروبا.. وكازينيوهاتها.. متأبطين كبرياء جــريح.. وأســف شديد..على كل هذه الجواهر، في أيدي لصوص قذرين..؟!

ويسألونك عن الرقص.. قل فيه الهمس واللمــس.. وقــراءة الغمز..قل فيه الغيبوبة.. والاحتمال.. والكلام الكثير، عن أعياد الميلاد الاستثنائية.. قــل فيــه الآبــار الممتلئــة.. والــسوق الرائجة.. والفائدة الكبيرة.. ومن واجب الفئة والحال هكذا..أن تسن قوانين جديدة للهجرة.. وأخرى لزيادة الدخل لفئــة، دون أخرى.. وفي الدورة المقبلة.. سيصدرون مراسيم جديدة وفــق حالة الطوارئ.. بها يضربون بيد من حديد، على كــل بــادرة وعي تومض، في أي رقعة مــن أرضــهم.. هكــذا دون أرض تمنحنا، سخاء أمنها نهيم.. وكل ما في الأمر.. أن الأرض وكل الوطن.. لهم.. وحدهم هؤلاء الذين ينبثقون كالغفلة.. وينبتون كالسهو.. يقفون خلفنا تماما..

يأمرون بالقرابين.. فنسوقها إليهم.. ويطمعون في الأصوات.. فنمدها لهم، جسرا يعبرون عليه.. وكلنا أمــلا، فــي رقعــة بياض، يمكننا الثرثرة فوقها.. وممارسة طقوسنا المتــأخرة.. كأن نَعِشْ طفولتنا.. وقد سلبت أربعــين عامــا.. أو أن نحــب حبيباتنا.. وقد اغتصبن بطعنة غدر.. أو جرة خمر..؟ !

منذ أمد بعيد ونحن نسمع..منذ أمد بعيد وهم يخطبون.. ومـــن فترة.. بدوا وكأنهم أقنعونا، فرحنا نصفق بحـــرارة وشـــوق.. رغبة في التغيير.. يحدث هذا.. ونحن تحـــت ســـقف، خـــشب قولهم.. متوسدين جراحاتنا.. محاولين أن ننام.. وأغنية قديمة لخوف عابث، تحاول دندنتنا..فنظل بعيون مفتوحـــة، نترقـــب جلاء ممكن الاحتمالات.. هكذا الحال.. وهكذا وجدتُني ســـفيرا لهذا الحال.. أحمل الهم وعيون من في الدرك الأســـفل، إلـــى حضرة الفوق..؟ !!

أصعد إلي.. من أسفل منحدر جارف..ممسكا بنتوءات فطريـــة وراثية.. مرصوصة ومرصوفة بإحكام، متنـــاثرة عبـــر يبـــاب الروح.. بالكاد أصل إلى منتصفي.. قلت أستريح مـــن وعثـــاء عقبتي الكئود.. وأطل على ما تيسر لي من حيوات.. فقط وأنا أصعد من جديد.. هالني ما رأيت.. ووعيت.. وأنا أتذكر قـــول ملكي.."كلكم تحت إلاي.. ومن وليت.. !؟"

انتابني شيء من الرعب.. وكثير من تأنيب الذات.. "كيف لـــي أن أنسى بكل هذا اليسر، قول ملكي وهو يمسح الوسط الـــذي كان.. و يثبت كل التحت..؟".. صعدت وصـــعدت.. ولـــم أبلـــغ الفوق أبدا..ليس جبنا..ولا تخاذلا.. ولكنهـــا المـــسافة تـــزداد

هروبا وامتدادا في التيه، كلما أنت كابرت وتمسكت أكثر..على تماس فاصل وجدتني أخيرا..معلق بين هوتين اثنتين..واحـــدة تطل من فوقي.. راغبة..{{ في قهوة }} وأخرى تـــشدني مـــن الأعماق.. مستجدية.. عودتي.. عرضة لكل التيارات.. بقيــت زمنا..تعبت وأنا طريح الهوتين.. أجهشت..ناديت.. رجــوت.. ولكنني أخيرا.. يئستُ فــصرختُ.. حتـــى أتتنـــي عــصاي.. موروثي.. وكل الجذور.. اتكأت على عصاي وهممت.. بعدها لم أذكر شيئا.. لأنتبه لتوي ..على جلبة بالدار.. ولغط نسوة.. وبكاء مرير.. لأطفال حائرين..؟؟ !

تمت.. جيجل/ أبريل/٢٠٠٣